الدكتور
محمد عصمت بكر

جذور الفتنة

أجيال بني إسرائيل الأولى



جـذور الفتنة

أجيال بني إسرائيل الأولى

د: محمّد عصمت بكر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كان لتهميش الثقافة الإسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي أثره الواضح في ضعف المواجهة العربية. وأكبر دليل على ذلك ما نشاهده من استيراد ثقافات شرقية أو غربية لمواجهة الثقافة الإسرائيلية.

والواقع. إذا تساءلنا عن دوافع هذا التغييب نجد أنه ناتج إما عن جهل العرب بثقافتهم في المواجهة وحصر النظر على الثقافة العربية في الفترة ما قبل الإسلام. ومنه الفصل بين الثقافة الإسلامية والثقافة العربية في أذهان الطرف المغيب للثقافة الإسلامية.

وإما الاعتقاد الخاطئ بانحصار الثقافة الإسلامية الموجّهة ضدّ اليهود عموماً وبني إسرائيل خصوصاً في دائرة الدين.

ومن هنا اختلفت وجهة النظر عند المثقفين الوطنيين[1]. في الثقافة الموجهة ضدّ إسرائيل عن وجهة النظر عند المثقفين الدينيين.

فالطرف الأول يصارع الكيان الصهيوني ويتصدى له من زاوية

---

[1] آثرت استعمال مصطلح «المثقف الوطني» تجنباً للمصطلحات المنفرة.

اغتصاب الأرض من عنصر غير مرغوب فيه. فالصراع منحصر في قضية اغتصاب أرض، والعداء العنصري.

وأما وجهة النظر عند الطرف الآخر فتنحصر في الخلاف العقائدي بين الإسلام واليهودية.

والحقيقة أن هوة الخلاف بين الطرفين في هذه المسألة تحديداً ليست عميقة كما أنها ليست بعيدة الأطراف. وإنما هو وهمُ السّكارى في تقدير المسافات.

فالإسلامي عندما ينظر إلى فكرة جديدة، أو مقولة حديثة واردة عن إسرائيل واليهود، قبل أن ينظرفيها ويحللها، ينظر إلى مصدرها أولاً فيبني على ذلك الرفض أو القبول، خاصة إذا كانت تخالف ما قد ارتكز في ذهنه من تفسير آية أو قول في كتب التراث.

وأما المثقف الوطني عندما يسمع مقولة حول إسرائيل أواليهود من إسلامي. فإنه يتصور المقولة الدينية التي يسعى إلى فصلها عن الحياة السياسية فيصمّ أذنه أو يهزّ رأسه استبعاداً لها عن ساحة الصراع الثقافي مع إسرائيل. أو أنه على أقلّ وهمٍ يخلط بين الثقافة والعنف المرتكز في تصوره عن أصحاب المقولة الدينية.

ولربما نجم الخلاف في وجهات النظر بين الإسلاميين والمثقفين الوطنيين عن عدة أمور: منها: رفض الإسلاميين لكلّ ثقافة واردة من خارج التراث الإسلامي وتوقفوا عند ما هو مكتوب في الكتب الموروثة.

ومنها: عدم إلْتفات المثقف الوطني إلى تراثـه. بـل إنـه غـضّ الطـرف كلياً عن تراثه وثقافته الأصلية ومدّ عينيه إلى الوارد عليه. ولـم يسمح كـلّ طرف لنفسه في فهم الآخر والتلاقي معه.

ولو أخذنا بالقواعد العقلية العامـة كوسـيلة تفـاهم لربّمـا وصلنـا إلى تحقيق التكامل الثقافي في مواجهة عدوّ لدود وغاشم.

وأهمّ تلك القواعد التي يجب أن نضعها أمام أعيننا دائمـاً هـي أنـه ليـس كـلّ وارد علينا من ثقافة باطلاً وضلالاً. كما أنه ليس كلّ ما في تراثنا حق اليقين.

من هذه القاعدة العقلية أعدتُ النظر في الخطاب القرآني الذي تنـاول قصة الصراع بين الأجيال الأولى لبني إسرائيل والمصريين في زمن فرعـون، ابتداءاً من الجيل الأول لهم، أي قُبَيْل دخولهم مصر. حتى بُعَيْد خروجهم منها. بناءاً علـى المعطيـات التاريخيـة والتصـورات القرآنيـة العامـة لسـلوك شعب إسرائيل عبر تاريخ أجيالهم. وبعيداً عـن التصـورات التـي رسـمتها الأيادي اليهودية في الأذهان من خلال ما وضعوه في تراثنا لحرف أنظارنـا عن الحقيقة المرادة من الخطـاب القرآنـي عـن هـذا الشـعب. وقـد تجنبـت الأحكام الموضوعة سلفاً على المقولات الواردة من غـير المسـلمين في هـذا الموضوع، بل نظرت إليهـا نظـرة متـأمل متفحـص. وسـاويت في البحـث بينها وبين الموروث في تراثنا من أقوال وآراء.

نعم! إنني لا أستطيع أن أبـرئ نفسـي مـن الشـعور بـالبغض لشـعب إسرائيل، أو من هيمنة العاطفة الدينية، أو إخفاء ظاهرة الولاء الوطني.

فقد يظهر ذلك في بعض المواطن من البحث. إلاّ أنني حرصت كلّ الحرص على عدم الخروج عن الموضوعية العلمية قدر إمكاني.

ففي بعض مواطن البحث كان القلم يهتز بين أناملي غضباً، ويرتجف في مواطن أخرى خوفاً.

لهذا وذاك ألتمس العذر مسبقاً إن ظهر في البحث عجزي عن إظهار كلّ قصدي، وألتمس حملي على حسن النية إن كان في بياني ما لا يقصده قلبي.

محمّد عصمت بكر

المصطلحات الثلاثة

الصهيونية – اليهودية – إسرائيل

في زماننا الحاضر ثلاث مصطلحات أو ثلاثة أسماء لثلاث مسمّيات اختلط بعضها ببعض حتّى صارت جميعها كأنّها مسمىً واحد. اليهود، إسرائيل، الصهيونية. ثلاثة أسماء يجب أن يكون كلّ اسم منها له مسمّاه الذي يختلف عن الآخر ويفترق عنه، ولكن الأسماء الثلاثة إذا أشرت إلى واحد منها كأنّك تشير إلى الآخر، بمعنى أنّه اختلطت المسمّيات ومعانيها فأصبحت كأنها أسماء لمسمّى واحد، فإذا أشرت إليه بأحد الأسماء الثلاثة كفاك للدّلالة عليه، فإن قلنا: إسرائيل. فإنّ ذلك يعني الصهيونيّة أو اليهوديّة. وإذا قلنا: اليهود. فإن ذلك يعني الصهيونيّة أو إسرائيل. وكذلك إذا قلنا: الصهيونيّة فأصبحوا وكأنّهم ثلاثة أوجه لشيء واحد.

ولكنّنا إذا أردنا الحقيقة فيما تخصّ الجذور والمبادئ فلابدّ من التفريق بين المسمّيات والمعاني المتعلقة بكلّ اسم منها لإدراك الفوارق بينها والتمايز فيما بين كلّ معنى من معانيها، وهذا التفريق بين مدلولات الألفاظ يفيد كثيراً في فهم المعاني المقصودة والمراد من الخطاب القرآني لليهود، ولبني إسرائيل.

وهذا اللبس بين المسميات المذكورة سبّب حالة من الاضطراب في فهم الحقائق والوقائع فيما يجري حولنا من أحداث تتعلق بالكيان الصهيوني

الإسرائيلي اليهودي في المنطقة العربية خصوصاً، والإسلامية عموماً.

لهذا يستوجب النظر بشيء من الإمعان في المدلـولات والمصطلحـات الثلاثة (الصهيونية - اليهودية - إسرائيل) لبيان الفوارق بين مسمياتها.

أولاً: الصهيونيّة

هي حركة سياسيّة حديثة أسّستها أيادي إسرائيليّة وسط المجتمعـات اليهوديّة بقصد تحريك مشاعرهم لإنشاء وطن قوميّ لهم في فلسطين.

فقد أدرك أصحـاب هـذه الحركـة بمـا لديهـم مـن خـبرات وتجـارب تاريخية أن أفضـل الوسـائل لتحريـك مشـاعر اليهـود، وتحريـض النزعـات العاطفية داخلهم هي النزوع الديني.

فكان لابد من استخدام الدين لتحقيق فكرة إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، فقـاموا بتوجيـه وتحريـف نصـوص دينيـة محرفـة أصـلاً وإلباسـها لأهداف سياسية أو قاموا بتوجيهها لخدمة هذا الهدف.

والصهيونية كلفظ لم يرد في كتاب الله سبحانه وتعـالى أو حتـى مـا يشير إليه، لهذا أدع مجال البحث فيه لأهل الاختصـاص في مجـال البحـث التاريخي عن تلك الحركة، لأن بحثي يدور حول جذور الشعب الإسرائيلي على ضوء القرآن الكريم.

فالصهيونيّة باسمها ومعناها ليست جذراً وإنّما هـي ثمـرة مـن ثمـار الشجرة الإسرائيلية اليهودية.

ثانياً: اليهوديّة

اليهود كلمة غير عربية الأصل، ولكن طبيعة اللغة العربيّة تمكّنها من احتواء الكلمات التي ينطق بها العرب، فيستعملونها ويشتقّون منها الأسماء والأفعال على حسب المعاني المقصودة، نحو: كلمة (فرعون) صارت عربيّة بالاستعمال فاشتقّ منها تفرعن، وفرعنة، وغيرها من مشتقّات كذلك كلمة (يهود) صارت عربيّة بالاستعمال، وإن كانت غير عربيّة الوضع فنقول: تهوّدَ وهاد، ويهوديّة وغيرها من مشتقّات، وهذه المشتقّات قد ورد كثير منها في القرآن الكريم، وقبل ذكر أمثلة من مشتقاتها في القرآن أبين معناها في اللغة.

ورد معنى كلمة اليهود في الصحاح مادة (هـ – و – د).

هاد: تاب ورجع إلى الحقّ، والتهوّد التّوبة والعمل الصالح.

ويقال: هادَ، وتهود أي: صار يهوديّاً.

الهُود على وزن العُود ومعناه اليهود.

والتهويد يعني المشي الرويد، أي المشي المعتدل الأقرب إلى البطء منه إلى السرعة، وهو كالدبيب.

والتهويد: تصيير الإنسان يهودياً كما في الحديث الشريف: (فأبواه يهوّدانه) أي يجعلانه على دين اليهود. انتهى بتصرف من الصحاح.

وأمّا الراغب الأصفهاني فقد ذكر في (مفردات ألفاظ القرآن) مادّة (هـ – و – د) (الهَوْد): الرجوع برفق، ومنه التهويد وهو المشي كالدبيب.

وصار الهَوْدُ في المتعارف: التوبة قال تعالى: **﴿إنّا هدنا إليك﴾** أي تبنا إليك، واليهود في الأصل من قولهم: هدنا إليك.

ويقال: هاد فلان إذا تحرّى طريقة اليهود في الدين، قال الله عزّ وجلّ: **﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا﴾** وهو في الأصل جمع عائد إلى المفرد تائب. انتهى بتصرف.

وخلاصة المعنى، هو أن كلمة اليهود اسم من أسماء الصفات بمعنى التّوبة أو الرجوع أو التسليم أو غير ذلك ممّا في معناه.

وهذا الاسم يطلق على كلّ من اتصف بهذه الصفة بغضّ النظر عن عنصره أوعرقه كما قال تعالى على لسان موسى في دعائه: **﴿إنّا هدنا إليك﴾** أي رجعنا وسلمنا إليك، ولابدّ من التنبيه على أنّ كلمة (هدنا) ليست مأخوذة من معنى الهداية والاهتداء الذي بمعنى سلوك الطريق القويم، فالهداية من مادّة (هدي)، واليهود من مادّة (هود)، وذلك التنبيه بقصد عدم الخلط بين المعنيين.

وقد أصبح اسم اليهود يطلق على أتباع دين موسى عليه السلام، واليهوديّة اسم لمعنى الدين، فكلّ من دخل فيه إسرائيلي كان أم غير إسرائيلي يطلق عليه يهوديّاً، مثل: كلمة الإسلام أو المسيحيّة.

كلمة اليهود في القرآن الكريم:

ولكي يتضح معنى اليهود أكثر مما بيّنا علينا ملاحظة الخطاب القرآني في استعمال كلمة (اليهود) فقد ورد لفظ (هاد) بمشتقّاته في القرآن الكريم باستثناء اسم العلم للنبي (هود) عليه السلام في اثنين وعشرين مورداً، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

بمعنى من كان منتمياً إلى الديانة اليهوديّة أو النصرانيّة، بقرينة عطف (هوداً) على كلمة النصارى التي تعني الديانة النصرانيّة. لأن المعطوف يجب أن يكون من جنس المعطوف عليه.

وفي قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القرة: ١٣٥] بمعنى كونوا في ملّة اليهود أو ملّة النصارى بدليل قوله: (قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً) بمعنى أنّنا لن ندخل الملّة اليهوديّة ولا الملّة النصرانيّة وإنّما ندخل في ملّة إبراهيم المعتدلة والمستقيمة. فكلمة هوداً تعني الملّة اليهودية.

وفي قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠] بمعنى أن قول اليهود بعد موسى إن إبراهيم ومن بعده إلى الأسباط كانوا على ملّة اليهود ادعاءً وليس حقيقة، لأن الله الذي أخبر محمداً صلوات الله

عليه بأنهم ليسوا من اليهود أعلم، وأن اليهود لا يعلمون لأن الديانة اليهوديّة لم تتنزّل إلاّ بعد زمن هؤلاء أي في زمن موسى الذي جاء من بعدهم. فلاتصحّ نسبة إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلى الملّة اليهودية حيث إنها لم تتنزل في زمانهم.

وإخراج هؤلاء المذكورين من اليهوديّة والنصرانيّة يدلّ على أن اليهود ديانة وليست عنصراً كما هو المتوهم.

لفظ هادوا:

ورد لفظ (هادوا) في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. تعدد الآية الشريفة الملل والأديان فقوله: (الذين آمنوا) أي الذين دخلوا في دين الإسلام، (والذين هادوا) هم الذين دخلوا دين اليهوديّة (والنصارى) الذين دخلوا في دين المسيحيّة، والصابئة كذلك.

وإذا تأملنا موارد القرآن الكريم في كلّ الآيات التي ذكرت معنى اليهود بمشتقّاتها نجد أن المعنى وصف للجماعات التي دخلت دين اليهود، نحو قوله: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ...﴾ [البقرة: ١١٣].

يعني: قال الذين ينتسبون إلى اليهوديّة ليس المنتسبون إلى النصرانيّة على شيء، وكذلك قال المنتسبون إلى النصرانيّة ليس المنتمون إلى اليهوديّة على

شيء. والمقصود من القائل في الآية العلماء والسدنة في الملّتين بقرينة قوله: (وهم يتلون الكتاب) وأمّا العوام فهم تابعون في الأغلب لعلمائهم سواء أكانوا على الصواب أو الخطأ.

وقد جاءت كلمة (هود) بمعناها اللغوي في مورد واحد وهو قوله تعالى على لسان موسى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ...﴾ [الأعراف: ١٥٦].

أي عدنا إليك، وسلمنا لك، لذلك اكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وهذا المعنى مثل ما تضمنه قوله تعالى لسيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]. أي أنه عاد وسلّم وصدّق بربّ العالمين.

وأما من قال بأن تسميّة اليهود بهذا الاسم لأن سبطاً منهم ينتمي إلى (يهوذا) وهو الابن الرابع للنبي يعقوب غير صحيح.

فقد ذكره بعض المفسرين في تفاسيرهم، يندفع لما بيّناه من معنى كلمة يهود المأخوذة من اسم (صفة) وليست مأخوذة من اسم علم، ويزيد في دفعه. لو أنّ كلمة اليهود مأخوذة من (يهوذا) كان ذلك لتسمّوا بـ (اليهوذيين) وليس اليهود أو أطلق عليهم (بني يهوذا) كما أطلق على أولاد إسرائيل (بني إسرائيل).

وكذلك يندفع بعدم وجود ما يؤيّده من القرآن الكريم بالإضافة إلى دفعه بعدّة وجوه:

منها: لو أن «يهوذا» هذا هو الابن الرابع لسيّدنا يعقوب كما قيل لكان قريب العهد بزمن (يوسف) أي أنه من الجيل الثالث بعد جيل يوسف، ومن ثم يكون بعد يوسف وقبل موسى، فيلزم حنئذ وجود اللفظ قبل موسى، في حين أن لفظ اليهود لم يستعمل إلاّ بعد زمن موسى ونزول الرسالة عليه وربما بعد موته، وقوله: (إنّا هدنا إليك) يؤكّد أن اليهوديّة ليست اسماً لعنصر أو عرق من بني إسرائيل.

وكذلك قولهم: إنّ (يهوذا) هذا نبيّ من أنبياء بني إسرائيل قبل موسى، فإنّ هذا القول مندفع بعدم ثبوت وجود أنبياء في الفترة ما بين يوسف وموسى، وهذا ثابت من قول مؤمن فرعون أمام موسى وفرعون وملأ من العارفين بالتاريخ في زمانه ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

يتضمّن الحديث الاخبار عن الفترة بين يوسف وموسى، ويؤكد أنها قد خلت تماماً من الأنبياء من جنس بني إسرائيل، وهذا دليل بطلان القول: بأن (يهوذا) النبيّ كان هو الابن الرابع ليعقوب، وسيأتي ذكر ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ومنها: إذا كان (يهوذا) سبطاً من أسباط بني إسرائيل وأنّ أبناءه هم (اليهود) لانتمائهم النَسَبي إليه، فإن معنى ذلك أن اليهود فرع من بني إسرائيل وليس كلّهم، بل ليس كلّ من انتمى إلى الديانة الموسويّة يهوديّاً،

لأنّ هذا الاسم مقصور على أبناء (يهوذا) دون سواهم. وليس من المتعارف عليه أن يطلق اسم الفرع على الأصل أو علىالأصل مع ضميمةالفروع، فمثلاً: لا يصحّ إطلاق اسم قبيلة (حِمْير) وهي قبيلة من قبائل العرب على كلّ قبائل العرب، أو إطلاق اسم (بني هاشم) وهو خاص لقبيلة من قبائل قريش على عموم قريش.

صحيح يمكن حدوث ذلك ولكن على سبيل الادعاء أو لغرض بلاغي، وهذا المقام ليس مقام الادعاء أو البلاغة.

ومنها: لو كان اسم اليهود عائداً إلى من ينتمي إلى السبط (يهوذا) لصار الخطاب القرآني لليهود مخصوصاً بهم دون سواهم، وهذا خلاف الحاصل والواقع في خطاب القرآن الكريم لهم.

ومن هنا نصل إلى خلاصة المعنى في مسمّى كلمة (اليهود).

(فاليهوديّة) إسم أُطلق لشريعة موسى عليه السلام، فهو اسم علم لدين متحول من صفة، ومن ثمّ (فاليهود) هم الناس الذين انتموا إلى هذا الدين بغضّ النظر عن عنصرهم وعرقهم، فيقال للعربي أو الآري أو الإسرائيلي أو الكردي يهودياً متى انتمى إلى ملّة اليهود.

ولكي يكتمل البحث في معنى اليهود، لابدّ من الإشارة إلى أنّ التاريخ القديم لشعوب المنطقة (مصر وما حولها) يؤكد أن بني إسرائيل قد تخلّوا عن ديانة موسى عليه السلام بعد موته أو قتله - سيأتي البحث فيه - وعبدوا إلهاً يدعى (يهوه) وهو إسم إله البراكين عند الشعوب

القديمة لتلك المنطقة الواقعة من صحراء سيناء والممتدة من جبال (عتاقة) إلى سلسلة الجبال البركانية الممتدة شرق البحر الأحمر.

وهذه المنطقة هي التي مات فيها موسى عليه السلام وترك شعب إسرائيل سائباً، ومن ثمّ لا مانع من إطلاق إسم الصفة على من انتمى إلى دين (يهوه).

وإسم (يهوه) هذا هو إسم الإله الذي نزل على موسى في (مريبة قادش) بسيناء كما ذكرت التوراة.[1].

ذكرت ذلك استكمالاً لبحث معنى كلمة (يهود) وإن كنتُ أرى أنه لا مانع من قبول هذا الرأي مع بعده عن المتعارف عليه بين الناس، ولكنَّ اللغة العربية والعرف لا يتعارضان مع الأخذ بهذا الرأي، حيث إنَّ اللغة العربية تجيز استعمال الأسماء المنتقلة. بمعنى أنه يجوز استعمال لفظ (اليهود) على الذين اتبعوا ملة موسى زمناً ثمَّ تركوها إلى الدين الجديد الذي ينتسب لفظاً إلى (يهوه) إله البراكين.

وقد يقوِّي هذا الاحتمال عدم معرفتنا بالزمن الذي استعمل فيه لفظ (اليهود) أوَّل مرة، أو متى ظهر هذا الاسم؟

إلاَّ أنه من المؤكد والذي لا ريب فيه هو أن القرآن الكريم لم يستعملْ هذا الاسم (يهود) في زمن موسى، في أثناء سرد قصتهم في زمانه. ومن ثمَّ يتأكد أن هذا المصطلح لم يظهر أو يستعمل إلاَّ بعد زمن

[1] يراجع كتاب (موسى والتوحيد) لـ (فرويد).

موسى النبيّ بزمن ليس بالقصير.

وأما إذا قيل: كيف اعتبرهم الإسلام أصحاب ديانة سماوية وأسماهم (باليهود) إذا كانوا قد تركوا ديانة موسى النبيّ إلى ديانة أخرى وثنية تنتسب في اللفظ إلى (يهوه) إله البراكين؟

أقول: الإسلام ينظر إلى مثل هذه الطوائف باعتبار ما كانوا عليه، كما هو الحال في (الفُرس) فقد اعتبرهم أصحاب ديانة سماوية ولم ينظر إليهم كوثنيين مع أنهم في الواقع يعبدون النار، وهذا ما قاله رسول الله صلوات الله عليه في أمرهم: «كان لهم كتاب فحرقوه، ونبيّ فقتلوه»، فنظرة الإسلام إلى (اليهود) باعتبار أنهم كانوا أصحاب كتاب سماوي، وأتباع نبيّ، وقد أقرّ القرآن وأكّد على أنهم حرّفوا هذا الكتاب وأضاعوا الأصل النازل على موسى عليه السلام. كذلك لا مانع أن يخاطبهم القرآن بقوله (يا أهل الكتاب) من باب ما يدّعونه لأنفسهم أنهم أصحاب الكتاب.

على كلٍّ حال فإن هذه المسألة أتركها مفتوحة لاستكمال النظر والتأمل فيها لمن يرغب من القراء والباحثين.

ثالثاً: بنو إسرائيل

إنّ كلمة (إسرائيل) ككلمة اليهودية غير عربية، إلاّ أنها ليست من الأسماء المشتقة من صفة، فهي كلمة تدلّ على علم، أول من تسمّى بها (يعقوب) عليه السلام، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في قوله: ﴿إلاّ ما

حرَّم إسرائيل على نفسه﴾ وإسرائيل في الآية هو يعقوب عليه السلام.

وقد ورد في معناها أنها كلمة مركّبة من كلمتين (إسرا) و (إيل) الأولى بمعنى (عبد) والثانية بمعنى لفظ الجلالة (الله) فيكون تركيبها إضافياً (عبد الله) ونقل اللفظ من العبريّة إلى العربية بهذه الصورة التي عليها الآن (إسرائيل).

ومن ثمَّ فإنّ كلمة (بني إسرائيل) تعني أبناء يعقوب وذريّته، فاللفظ كما هو واضح يدلّ على عنصر أو عرق بعينه مجرداً عن أيّة صفة أخرى، وقد ورد لفظ (بني إسرائيل) في القرآن في ثلاثة وثلاثين مورداً أكثرها في خطاب القرآن لهم عندما يذكر قصتهم مع فرعون أو مع النبيّ موسى عليه السلام.

ومن هنا وبعد بيان كلمة (بني إسرائيل) يتضح الفرق بين معنى (اليهود) ومعنى (بني إسرائيل)، فالأوّل: يعني الأفراد أو الجماعة المنتمية إلى الديانة اليهوديّة بصرف النظر عن العرق أو العنصر أو الجنس، والخطاب لهم يعني الخطاب للمتلبسين بالصفة.

أمّا الثاني: فإنه يعني الأفراد المنتمية إلى عنصر، أي المنتمون إلى يعقوب (إسرائيل) بالنسب، والخطاب لهم يعني الخطاب لعنصر مجرّد عن الصفات.

اللّبس بين
معنى اليهود وبني إسرائيل

رغم وجود الفارق بين كلّ من معنى اليهود ومعنى بني إسرائيل كما أوضحنا إلاّ أنه يغلب استعمال كلّ كلمة منها في معنى الآخر، فإذا ذكرنا اليهود يعني ذكر بني إسرائيل، وذكر إسرائيل يعني ذكر اليهود. فقد اختلطت العنصريّة الإسرائيلية بمعنى الديانة اليهوديّة.

وهذا الخلط بين مفهوم اليهود كأمّة مركبّة من عناصر متعدّدة تنتمي إلى الرسالة الموسوية وبين مفهوم بني إسرائيل كعرق ينتمي بالنسب إلى يعقوب ناتج عن عوامل أدّت إليه.

وهذه العوامل تكاد تنحصر في عاملين أساسين:

الأوّل: خصوصية الرسالة الموسويّة.

الثاني: الطبيعة العنصريّة لشعب إسرائيل التي تدفعه لاحتكار الديانة بشقيها العقائدي والتشريعي.

هذان هما أهم العوامل التي أدَّت إلى حالة اللبس بين معنى بني إسرائيل كعنصر وبين اليهود كعناصر مختلفة اشتركتْ في عقيدة واحدة.

ورفع اللبس الحاصل بينهما يؤدي بدوره إلى كشف مزاعم العنصر

الإسرائيلي ودجله على العناصر اليهودية الأخرى واستعمالهم كوسائل رخيصة لتحقيق أهدافهم العنصرية تحت غطاء الدين اليهودي، وقد ساعدهم على ذلك طبيعة الرسالة الموسوية وقابليتها للتخصيص مع الطبيعة الإسرائيلية في حبّ الأثرة والاحتكار.

أوّلاً: خصوصية الرسالة

إنَّ الرسالات السماوية بشكل عام إما أن تكون رسالات خاصة بشعب أو قوم بعينه، وإما أن تكون عامة لكلّ الناس بجميع عناصرهم وأعراقهم وليست خاصة بقوم دون قوم، أو شعب دون شعب آخر.

والخصوص والعموم في الرسالات السماوية منحصر في جانب الشرائع وليس في جانب العقائد المتعلقة بالثوابت الإلهية، لأن الجانب المتعلق بالعقائد ثابت لا يتغير لأنه متعلق بالله سبحانه وتعالى، فهو ثابت ودائم، يجب على كلّ إنسان فرداً فرداً الالتزام به كالعدل، والتوحيد، والبعث، والثواب، والعقاب، والإيمان بالملائكة وغير ذلك من عقائد، فهذا غير قابل للتخصيص، أو التغيير، أو التبديل.

وأما الجانب الذي يتغير ويصحّ فيه التخصيص فهو جانب الشرائع والوصايا ﴿...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً...﴾ [المائدة: ٤٨].

ولزيادة البيان في هذه المسألة نبيِّن الفرق بين الرسالات السماوية العامة والرسالات السماوية الخاصة.

الفرق بين الرسالة العامة والخاصة:

إن أهم ما يميز الرسالات السماوية من حيث العموم والخصوص هو الخطاب القرآني الذي يصف أحوال وطبيعة الرسالة، وكذلك الأحوال التي تتعلق بالرسول، والمرسل إليه.

إذاً فهناك ثلاثة أحوال: حال الرسالة، وحال الرسول، وحال المُرْسل إليه.

فالرسالة العامة يكون الخطاب فيها للعموم. أي لكلّ الناس وعمومهم، نحو الخُطاب القرآني المتعلق بالإسلام. نجد الخطاب فيه ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ٢١].

فقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس**﴾ خطاب عام شامل لكلّ أفراد الناس بغضّ النظر عن عرق، أو شعب، أو جنس.

وقوله تعالى: ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٨].

قوله تعالى: ﴿**هذا بيان**﴾ إشارة صريحة إلى القرآن الكريم، وقوله: (للناس) أي لكلّ الناس، وقوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [سبأ: ٢٨]. وقوله: ﴿**قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً...**﴾ [الأعراف: ١٥٨]. هذا بالنسبة للخطاب فيما يخص المرسل إليه والرسول.

وأما طبيعة الرسالة نفسها، أي طبيعة الشرع والوصايا فإنها تتصف في الرسالة العامة بالثبات، والديمومة، والكمال، والشمول، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً...﴾ [المائدة ٣].

ومن خصائص الرسالة العامة أيضاً هيمنتها على الرسالات التي جاءت قبلها، بمعنى نسخ وإلغاء ما لا يصحّ بعوامل التغيير الزمني منها، وتثبيت وتأكيد ما زال صالحاً فيها، وكذلك تثبيت ما يصلح لكل زمان ومكان، ثم بعد ذلك يلغى من الشريعة الخاصة الأحكام والشرائع التي لا تصلح للديمومة والبقاء.

وأما بالنسبة للرسالات السماوية الخاصة فالخطاب فيها يختلف عن الخطاب في الرسالات العامة، والأحوال المتعلقة بها وبالرسول والمرسل إليه تختلف كذلك عما هو عليه في الرسالات العامة.

فالخطاب فيها يكون موجهاً إلى شعب بعينه، وتكون الرسالة غير شاملة لكلِّ جوانب الحياة وإنما جاءت بقصد تصحيح مسار أو علاج مرض اجتماعي في هذه القبيلة أو الشعب المخصوص بالرسالة، كرسالة هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم، والمثال على ذلك في الخطاب القرآني قوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلِّ أمَّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...﴾ [النحل: ٣٦].

بمعنى أن كل أمة من الأمم أرسل الله إليها رسولاً خاصاً بها،

يدعوها إلى عبادة الله، وهذا هو الجانب العقائدي الثابت والمشترك بين كل الرسالات، ثم يفصل بينها بوضع الشريعة المناسبة لظروف حياة كل شعب من الشعوب.

ثم يفسر الله سبحانه وتعالى الإجمالي الحاصل في قوله: (في كل أمة رسولاً) في مواطن كثيرة من القرآن منها قوله تعالى: **﴿ولوطاً إذ قال لقومه...﴾** [العنكبوت: ٢٨].

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً...﴾ [العنكبوت:٣٦].

﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً...﴾ [هود:٥٠].

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً...﴾ [هود:٦١].

نلاحظ أن الخطاب في الآيات مخصوص بالقبائل المذكورة في الآيات، فكل رسول من هؤلاء الرسل خاص بقومه قد جاءهم بالثوابت العقائدية ثم بالقوانين والشريعة الخاصة بكل قوم منهم والتي تتفق وظروف معايشهم وزمانهم.

ومن ثمَّ فإن الجانب التشريعي لهذه الرسالات لا يتسم بالثبات والديمومة أو الكمال لأن الغرض منه علاج مرض اجتماعي ظهر في هذه القبائل.

والرسالة الموسويّة من هذا النوع الخاص، التشريع فيها خاص ببني إسرائيل[1].

وما يدلّ على خصوصية الرسالة الموسوية وعدم عمومها قوله تعالى:

---

[1] لا شكّ أنني لا أقصد بالتشريع هنا الوصايا العامة كالتي تحثّ على حسن الخلق، والإلتزام بالتقوى والورع والعدل بين الناس وغير ذلك فهذه وصايا عامة وإنما المقصود بالتشريع مجموعة القوانين التشريعية.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فالتوراة رسالة دستورية نزلت على موسى ليحكم علماء بني إسرائيل طائفتهم بها، وهو واضح من قوله: (للذين هادوا).

وأصرح من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾ [الإسراء: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣]. فقوله في الآيتين: (هدى لبني إسرائيل) تصريح بخصوصيّة الرسالة.

وأما خطاب الله سبحانه وتعالى لموسى بصفته رسولاً مكلفاً يزيد في تأكيد خصوصية رسالته لقومه ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦-١٧]

فقوله: (أن أرسل معنا بني إسرائيل) تصريح بخصوصيته لقومه.

وخطاب فرعون لشعب إسرائيل في قوله: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] صريح في كون موسى مرسلا إلى بني إسرائيل خاصة، مثله في ذلك مثل لوط، وهود، وصالح، وغيرهم ممن أُرسلوا إلى قومهم.

وأما ما يتعلق بطبيعة الشريعة في الرسالة فهي شريعة غير ثابتة ومؤقتة،

ارتبطت بالظروف والأحداث التي أحاطت بشعب إسرائيل آنـذاك، ونذكـر مثالاً على ذلك: قوله تعالى: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]. هذا الحكم تشريع ولكنّه مخصوص بظرف ووقت كان فيه بنو إسرائيل مشردين ضائعين في بريّة سيناء لا طعام يناسبهم، ولا مأوى يحميهم. لذلك شرّع الله لهم دخول الأرض المقدسة، ولكنهم لما رفضوا امتثال أمر رسولهم تغير الحكم وتبدّل بحكم آخر ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] فتغير الحكم لتغير الأحوال يدلّ على أن هذه الأحكام مؤقتة بزمانها وظروفها، وهذا ما يؤكد على أنّ الرسالة اليهوديّة رسالة خاصة وليست عامة، وناقصة غير تامة.

ومثل هذه الرسالات تحتاج إلى رسالات تأتي من بعدها تهذّب أحكامها وتكمل النقص فيها، لذلك أوصاهم الله سبحانه وتعالى بإتباع الرسول الذي يأتي بالرسالة العامة الشاملة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٧]. فالله سبحانه وتعالى يعلم طبيعة الشر والعدوان الكائنة في نفوس بني إسرائيل لذلك أنزل عليهم تشريعاً خاصاً بهم يكبح جماح الشر فيهم،

ويهدئ من غطرستهم وفسادهم عن طريق فرض أحكام كانت بمثابة اللّجم لهم، أو الخُزام لناقة أو جمل تلبّسه الشيطان، لذلك وضع الله لهم أحكاماً خاصة كانت بمثابة الأغلال في أعناقهم لكبح جماحهم.

ولما أراد الله سبحانه وتعالى الاستقرار للتشريع وإرسال الرسالة الأخيرة المتميزة بالهيمنة والكمال والتمام والشمولية للبشرية جمعاء أنزل الشريعة الإسلامية بمثابة الإفراج الإلهي عن شعب إسرائيل برفع الأحكام التي أثقلتهم، والتي شبهها الله بالأغلال، لأن القصد من فرضها في السابق هو الحد من حريتهم التي لو أعطوها كاملة لامتلأت الأرض منهم فساداً.

كذلك كان من ضمن ما أرسل به سيدنا عيسى عليه السلام رفع بعض الأحكام عن بني إسرائيل **﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي﴾** [آل عمران: ٥٠].

وهناك أحكام أخرى وضعت في شريعة موسى بعد ذلك كانت بمثابة عقاب على سلوكهم وجرائم ارتكبوها **﴿فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ۝ وَأَخْذِهِمْ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾**[النساء ١٦٠-١٦١]. فحكم تحريم الطيبات بعد أن كانت حلالاً فرضت عليهم عقوبة على جرائمهم بعد تلبسهم بالديانة اليهودية وعدم التزامهم بالأخلاق التوراتية الصحيحة التي هي هدى ونور، فأكلوا الربا واستباحوا

أموال الناس ادعاءً منهم أنّ الناس قد خلقهم الله لخدمتهم، كذلك قتلهم النبيين، والإفساد في الأرض، وغير ذلك من جرائم اعتاد اليهود على ارتكابها فعاقبهم الله بتحريم بعض الطيبات عليهم، ولو أنّهم عادوا وتابوا وأصلحوا لرفع الله هذه الأحكام وأعاد الأحكام الأولى.

بعد ذلك يتأكد لنا أن الرسالة الموسوية خاصة لشعب إسرائيل من الجانب التشريعي للرسالة، وليس من الجانب العقائدي كما ذكرنا سابقاً.

ولكن بني إسرائيل بخبث منهم ودهاء ادعوا التخصيص في الجانب العقائدي أيضاً، أي أنهم هم وحدهم المعنيون بالتوحيد وليس سواهم، وأنّ الله خصّهم به دون غيرهم، وأنهم وحدهم هم أحباب الله وشعبه المختار، وما إليه من سخافات بُنيت على الخرافات والأساطير اليهوديّة المعهودة.

ثانياً: الطبيعة العنصرية لشعب إسرائيل

بعد بيان طبيعة الرسالة الموسويّة وإثبات أنها رسالة خاصة من جهة جانبها التشريعي، يأتي دور بيان الطبيعة العنصرية للنفسية الإسرائيلية، واستعدادها الأخلاقي والسلوكي في الأثرة والاحتكار.

وقد ذكرنا أن أيٌّ ديانة سماوية لها جانبان أساسيان: الجانب التشريعي وهو القابل للتخصيص بشعب أو بقوم دون غيرهم، والعقائدي المتعلق، بالله

سبحانه وتعالى وهو غير قابل للتخصيص، لأن الله سبحانه وتعالى خلق كلّ خلقه على سواء، فهو إله واحد لهم جميعاً وليس إلهاً مخصوصاً لقوم دون قوم، وأما إذا كان الله قد خلق بني إسرائيل وحدهم، وغيرهم خلقهم إله آخر فليس لإله بني إسرائيل أن يطالب غيرهم بعبادته، أو التسليم له أو حتى الإيمان به. وليس من حق هذا الإله المخصوص أن يطلب من الناس احترام شعبه المختار لأنه إلههم هم وليس إلهاً لغيرهم.

ولكن هو الله لا إله إلاّ هو. خلق الخلق على السواء الكلّ خلقه، والكلّ عباده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فالجن والأنس خلقهم الله ليعرفوه فيعبدوه دون النظر إلى أعراقهم وأجناسهم وألوانهم. ولكنه لما أرسل الله موسى من إسرائيل وخصص الخطاب التشريعي بهم جعلوا لأنفسهم حقّ احتكار العقيدة، وألبسوا أنفسهم بالديانة اليهودية بحيث لا تتسع أحداً غيرهم، وإن وسعت غيرهم يلزم على الداخلين في ديانتهم أن يكونوا تبعاً لهم، وتحت عباءتهم لا أن يكونوا متساويين معهم أو إخوانهم في الديانة كما هو الحال في الديانة الإسلامية.

فأغلقوا الديانة عليهم حتى تطور الأمر إلى احتكارهم لله سبحانه تعالى، واعتبروه إلههم وحدهم مقصور عليهم، وهم مقصورون عليه، فهم وحدهم خلقه، وأما غيرهم فما خلقهم الله إلاّ تبعاً وخدماً لهم، أي على حسب مقولتهم: (أنهم صنائع الله والناس صنائعهم) وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن هذه الحالة المرضية عند العنصر الإسرائيلي:

﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

ومن خلال تجارب هذا الشعب استطاع إدخال الديانة اليهودية بشرائعها وعقائدها إلى غرف مظلمة يجلس فيها كبار شياطينهم ليحذفوا منها كلّ صحيح يتعارض مع مصالحهم وأهوائهم العنصرية، ويضيفون إليها كلّ ما يخدم مصالحهم ويتفق مع رغباتهم، ثم يُخرجون ذلك إلى عامة الناس ويقولون هذا من عند الله ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] وفي هذه الحالة يتحتم على الشعب اليهودي أن يقبل كل ما خرج من الدهاليز ومن الغرف الشيطانية المظلمة.

ومن ثمّ تبّدلت التوراة الصحيحة التي وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها هدى ونور إلى توراة أخرى، وبعد أن أنزلها الله رحمة حرّفوها وجعلوها نقمة وجبروتاً، وداعية إلى العنصرية والفرعونية والفساد. فإن تفضيل عنصر على عنصر آخر قبيح وظلم عقلاً، وضميراً، ووجداناً أن يُنسب إلى الله سبحانه وتعالى.

وبمقارنة بسيطة بين قولين نفترض أنّنا لا نعرف مصدرهما أو القائل لهما، فإن سمعنا قائلاً يقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء ١]

ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣].

وسمعنا قائلاً آخر يقول: (متى أتى بك الرَّبُّ إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك الحِثّيين، والجرجَاشيين، والأمُوريين، والكنعانيين، والفرزيين، والحويين، واليَبُوسيِّين، سبع شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعهم الرَّبُّ إلهك أمامك، وضربتهم فإنك تحرمهم، لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم، بنتك لاتعط لابنه، وبنته لاتأخذ لابنك)[١] ويقول: (لأنك أنت شعب مقدّس للرب إلهك، إياك قد اختار الربّ إلهك لتكون له شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض)[٢].

إن سمعنا ذلك ولم نعرف من القائل كما ذكرتُ، فإننا نوجّه سؤالاً للضمير والوجدان والشعور والعقل الإنساني، أيُّ تلك الأقوال يمكن أن

---

[١] سفر التثنية. إصحاح ٧ الفقرة ١: ٣

[٢] سفر التثنية. إصحاح ٧ الفقرة ٦.

تنسب إلى الله الخالق تبارك وتعالى العادل؟ وأيهما ينسب إلى الشيطان الرجيم؟

وأيُّ الأقوال التي تتضمن المعاني السامية التي عليها حلاوة وطلاوة؟، وأيهما يُشتمُّ منه رائحة النتن العنصري؟، وأي الكلام يمكن وصفه بالهدى؟، وأيهما بالفساد والضلال؟

وبعبارة أدقّ أيٌّ منهما آيات رحمانية؟ وأي منهما آيات شيطانية؟

إنّني لا أعتقد أن يكون هناك عاقل يصدّق أنّ ربّ موسى وهارون هو الذي قال مثل هذا الكلام، لأنّ ربهما هو ربّ العالمين وليس ربّاً مخصوصاً لطائفة دون طائفة، أو شعب دون شعب آخر.

لكنّ الظاهر، والمؤكّد أنّ طبيعة بني إسرائيل جعلتهم يلتزمون بعبادة العجل الذي صنعه السامريّ إلاّ أنهم طوروه فجعلوه ينطق بما يتّفق مع مصالحهم وعدوانيتهم.

فالحالة المرضية التي يعاني منها شعب إسرائيل بالخصوص واليهود عموماً هي التي جرّت عليهم الويلات عبر العصور، وجعلتهم قوماً منبوذين ممن حولهم، وهي سبب حالة التوتر التي يعيشها هذا الشعب البائس.

فحالة التكبر والتعالي الكاذب نتجت عن توهمهم أنّ انتسابهم إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب يعطيهم الحقّ في التعالي على الناس والتفضل عليهم، ويعطيهم حقّ السيادة على الشعوب والأمم، ويعطيهم حقّ احتكار الدين، أو حقّ قصور الله عليهم، والحقيقة أن الانتساب إلى الأنبياء بالنسب

يجب أن يكون داعياً من دواعي التواضع والإصلاح والحبّ والسلام والوفاء. لا أن يكون داعياً إلى التعالي والفساد والعدوان والغدر.

والحقيقة أيضاً: أن الانتساب إلى الأنبياء بالنسب لا يعطي لصاحبه حقّ الانتفاع الدنيوي به، ولا يجلب سيادة، ولا يعطي حقّ احتكار الدين.

فالسيادة والشرف تكتسب بالانتساب إلى الأنبياء ولاءً وإيماناً والعمل بما جاءوا به من عند الله.

ومن ثمّ نكون قد بينا الفرق بين معنى اليهود، ومعنى بني إسرائيل، وأسباب اللبس في استعمال كلّ من اللفظين في معنى الآخر.

وخلاصة ما تقدم:

إنّ بني إسرائيل يعني عنصراً ينتمي إلى يعقوب نسباً، وأنّ اليهود عناصر متعددة دخلت مع شعب بني إسرائيل في ديانتهم، وقد وقع اللبس بين المعنيين لاحتكار بني إسرائيل اليهودية عليهم فأصبح لفظ اليهود يعني إسرائيل، وإسرائيل يعني اليهود.

وأسباب هذا اللبس ناتج عن قابلية الديانة اليهودية إلى التخصيص. وطبيعة بني إسرائيل العدوانية والاحتكارية.

وهناك سبب ثالث وهو قلة الداخلين في هذه الديانة من العناصر والشعوب الأخرى حتى أصبح التغليب لبني إسرائيل.

ولا شك أن العنصر الإسرائيلي يستفيد كثيراً من الخلط الحاصل والمتعمد بين معنى العنصرية الإسرائيلية ومعنى الديانة اليهودية، فأهم

مايمكن الاستفادة منه هو الحفاظ على استمرارية وديمومة السيادة للعنصر الإسرائيل على غيره من العناصر الأخرى الداخلة في الديانة اليهودية، باعتبار أنهم هم أولاد الرسل والأنبياء، وأنهم هم سدنة الديانة اليهودية والعلماء والعقول المفكرة فيها، ومن خلال ذلك يستطيعون استغلال تلك العناصر في تحقيق أهدافهم المادية والسياسية والوصول من خلالهم إلى أغراض مشبوهة.

ولهذا يتوجب على اليهود في أنحاء العالم أن يدركوا الفوارق بين ما هو ديني وما هو سياسي عنصري وأن لا ينجروا وراء حفنة من الحاخامات العنصرين.

والفوارق بين المعاني الثلاثة (الصهيونية - اليهودية - إسرائيل) لابدَّ من التأمل فيها وإدراكها تمام الإدراك حيث إنها الزاوية الهامة لإدراك حقيقة الصراع بين بني إسرائيل كعنصر وبين المصريين وغيرهم لأنهم دائماً ما يحيلون أسباب الصراع إلى أسباب دينية مغالطة ودجلاً.

وهذا ما أردنا نفيه وبيان حقيقة أمره... فتأمّل.

أحوال بني إسرائيل قبيل دخول مصر

إنّ ما نراه من فساد إسرائيلي في العالم على وجه العموم، وما نراه من فسادهم في المنطقة العربية على وجه الخصوص، وما نراه من فسادهم في مصر على وجه أخصّ. لابد أن نعلم أنّ هذا الفساد ليس وليد اليوم ولا هو وليد الأمس القريب، ولا هو وليد حدث أو حالة عارضة عرضت على بني إسرائيل.

وإنما هو سلوك أخلاقي موروث ممتد من جذورهم الأولى حتّى جيلهم الحاضر.

فإنه الطبع الفاسد الذي انطبعت عليه سريرة شعب كامل ما دخل أرضاً إلاّ وأثار فيها الفتن والصراعات الداخلية وأشعل نيران الحقد والحسد بين الناس، وعندما تدور الدوائر عليهم وتحرقهم النار التي يلعبون بها صاحوا وصرخوا واستغاثوا بمظلوميتهم، وشواهد التاريخ ناطقة بذلك.

وسوف نمدّ أنظارنا إلى الأجيال الأولى من شعب إسرائيل، أي إلى جذورهم الأولى، كيف دخلوا مصر؟ وكيف عاشوا فيها؟ وكيف كان صراعهم مع فرعون والمصريين؟ وغيرها من أحوال في ذاك الزمان. ليتأكد

لنا أن توارث العنصرية المتلبسة بلباس الدين لا يمكن أن ينتج عنها إلا كل شر، وأن انتظار الخير من هذه الفروع الممتدة من تلك الجذور ما هو إلاّ انتظار لمحال، أو سعي وراء سراب.

وسوف يتركز البحث في جذور بني إسرائيل من خلال ما ورد في القرآن الكريم باعتباره الوثيقة التاريخية الوحيدة الأكثر صحة، حيث إن الذي يحكي قصتهم هو الله سبحانه وتعالى، والمبلغ عنهم هو الصادق الأمين رسول الله الأعظم محمد صلوات الله عليه وآله وسلم. إذاً فالحقيقة التي نسعى للوصول إليها سوف نبحثها على ضوء القرآن عن قصة بني إسرائيل هي الفترة ما بين دخولهم مصر إلى بُعَيْد خروجهم منها.

بعد عبور سيدنا يعقوب الذي تسمّى بإسرائيل (عبد الله) هو وأبناؤه نهر الأردن استوطنوا البراري والقفار الواقعة بين أرض فلسطين ومصر، تارة في الجروف والكهوف الجبلية، وتارة في بيوت الشعر (الخيام) سعياً وراء المراعي، فقد كانت نشأتهم نشأة بدوية خشنة يسودها التوتر والخوف من جيرانهم أصحاب الأراضي والمراعي، حيث إنّهم في هذه الحالة يعتبرون في نظر الجيران دخلاء عليهم، لذلك كانت حياتهم في البرية يسودها شيء من العزلة والوحشة.

وقد كان أبناء يعقوب آنذاك اثني عشر ولداً ذكراً بما فيهم يوسف وأخوه من أمه، وهؤلاء هم الجيل الأول من أجيال بني إسرائيل.

وهذا الجيل الأول بما فيهم أبوهم يعقوب دخلوا مصر بعد التشرد

وحياة الحرمان والجوع في زمن يوسف عليه السلام أثناء المجاعة والجدب الذي أصاب المنطقة بأكملها.

الوضع الاجتماعي لبني إسرائيل قُبيل الدخول:

إنّ حالة الجيل الأول من بني إسرائيل حتى دخولهم مصر على الصعيدين: الأخلاقي، والاجتماعي كانت حالة مزرية، أشار القرآن الكريم إلى بعض جوانبها، وصور منها جوانب أخرى.

فقد أشار قول يوسف عليه السلام لأبيه: **﴿... وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** [يوسف. ١٠٠]

أشار هذا القول إلى الحالة العامة التي كانوا عليها، فالبداوة وحياة البراري، والتنقل والترحال غالباً ما تكسب أصحابها حالة من القساوة والغلظة والخشونة.

وإذا أضفنا إلى ذلك بعدهم عن العمران والحضارة والحياة المدنية أكسبهم أيضاً حالة من التخلف في جميع شؤون الحياة كشؤون الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها.

وأشار قول يوسف عليه السلام: **﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾** [يوسف: ٩٩] إلى حالة الخوف، وعدم الاستقرار التي كانت تسيطر على حياتهم في البرية، وهذه الحالة ملازمة لحياة البداوة التي يتصارع أهلها حول المراعي، ومواطن

القطر، والتعرض الدائم للغزو، وقطّاع الطرق، كل هذا يجعل حياتهم قلقة مضطربة، غير هانئة بأمن وسلام، فكان دخولهم مصر بأمان نقلة نوعية مهمة غيّرت نمط حياتهم فيها.

أما عن أخلاقهم، وسلوكهم فيما بينهم كمجتمع صغير تختلف تماماً عن أخلاق من حولهم من الناس. فالحقد، والحسد، والبغضاء، والتآمر، والغدر، والكذب كانت هي أهم صفات هذا المجتمع باستثناء أبيهم يعقوب عليه السلام باعتباره نبيّاً من أنبياء الله المنزهين عن كلّ الصفات التي اتصف بها أبناؤه.

وتلك الصفات لا نُطلقها عليهم من باب الجزاف أو الكراهية غير المسوغة، وإنما أكّدها القرآن الكريم، ونعتهم بها أبوهم يعقوب سلام الله عليه، فلما قصّ سيدنا يوسف على أبيه رؤيته التي رأى فيها أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له. علم يعقوب بما لديه من علم أنه سيصل إلى مرتبة عالية من مراتب الدنيا تجعل اخوته يسجدون ويخضعون له، لمّا علم يعقوب ما سوف يؤول إليه ابنه يوسف. قال: ﴿قَالَ يَابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] فهذه شهادة من يعقوب على بنيه بأنهم قوم مكر، وكيد، وتآمر.

ورغم كتمان يوسف رؤياه عن اخوته عملاً بوصية أبيه تآمروا عليه ورموا أباهم بالضلال: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً

يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٨-٩].

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۝ قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف: ١٦-١٧] ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]

هذه الآيات الشريفة رسمت صورة واضحة المعالم عن أخلاقهم، فالجريمة التي ارتكبوها مع أخيهم ليست مصادفة وإنما عن سابق إصرار وإعداد. والجريمة أياً كانت تقاس بدواعيها، ودوافعها، فإن كانت الدوافع، والدواعي كبيرة، وهامة فإنها تهوّن من وقع الجريمة في النفوس، وأما إذا كانت الدواعي والدوافع صغيرة أو تافهة فتكون للجريمة في النفوس حينئذ بشاعة ونفور من مرتكبيها.

فالجريمة تقاس بالدوافع من جهة، وبحجمها من جهة أخرى، فالتآمر على يوسف وإلقاؤه في الجبّ وبيعه، وحرمانه من أبيه، وحرمان أبيه منه جريمة بشعة خطيرة، وإذا قسناها بدوافعها التي ذكرها القرآن وهي حبّ أبيه له وإدناؤه منه، واهتمامه به لوجدنا أن الجريمة في منتهى البشاعة، وإن دلّت على شيء فإنما تدلّ على فقدان العقل الواعي عند بني يعقوب.

فحالة الحب التي خصّها يعقوب ليوسف، وحالة الاهتمام به حالات طبيعية، فكلّ أب يدني إليه أحب أولاده ويخصه باهتمام إذا كان الولد أصغرهم أو أنه يتميز عن اخوته بمميزات تجعله مقرباً لأبيه كأن يكون ذا

فطنة مثلاً، أو صاحب دين أو يتميز عن غيره من اخوته بخصائص خُلقية، أو غير ذلك من خصائص ومميزات حباه الله وميزه بها.

كلّ هذه أسباب طبيعية تقرّبه من أبيه وتدفع أباه إلى الاهتمام به وتخصيصه بحب أكثر، فسيدنا يوسف عليه السلام كان يحمل من الصفات التي تؤهله إلى حمل النبوة ووراثتها. فلا مانع من أن يدنيه أبوه إليه، ويُولِيه اهتماماً، وحباً ورعاية خاصة.

وأما حالة الغباء التي دلّت عليها الأحداث، وعدم الوعي والجهالة المطلقة في هؤلاء الأبناء يظهر من خلال توقعهم نتائج حسنة لأعمال قبيحة **﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾** [يوسف: ٩] فهم يعلمون أن أباهم شديد الولع بيوسف فكيف يتوقع عاقل أن يخلو لهم وجه أبيهم بعد أن يحرموه من أعزّ أبنائه بالقتل أو الإبعاد بأي وسيلة؟

ولا شكّ أن الجريمة لابدّ وأن يتبعها جرائم أخرى، فالتآمر والإعداد للجريمة في حدّ ذاته جريمة، وذهابهم إلى أبيهم والكذب عليه جريمة أخرى **﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [يوسف: ١٢]

﴿قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] فهذا الكذب أيضاً جريمة ثالثة، وكلّ هذه الجرائم وإن كانت من لواحق الجريمة الكبرى وتوابعها إلاّ أن كلّ واحدة منها جريمة في ذاتها.

وبهذه الجرائم، وبتلك النفسية، والأخلاق، والممارسات المنافية لنبوة أبيهم يكون قد حدث الانفصام في العلاقة بين يعقوب عليه السلام كنبي وبين أبنائه، وإن بقي الرباط أو العلاقة النسبية بينهما.

وبعبارة أخرى: قد حدث الانفصال الروحي والولائي بين يعقوب وبنيه، كما حدث مثل هذا الانفصال سابقاً بين النبيّ نوح عليه السلام وابنه، فليس الأمر إذاً بغريب أو مستبعد. وبعبارة ثالثة: فقد انفصل بنو إسرائيل عن جذر النبوة يعقوب وإسحاق وإبراهيم انفصالاً ولائياً وأخلاقياً وروحياً.

ومن ثمّ تزول الهالة التي أحاط بنو إسرائيل أنفسهم بها ويتحطم الحصن الذي يتحصنون به على أنهم ذرية الأنبياء والأسباط الذين لا ينالهم النقد وأنهم المحسودون، وأنهم المفضلون وغير ذلك من أكاذيب.

دخول بني إسرائيل مصر

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف: ٩٣] ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[يوسف: ٩٩].

هكذا صورت الآيات الشريفة دخول الجيل الأول من بني إسرائيل مصر.

فبعد أن احتل يوسف عليه السلام مكانة سامية في الحكومة المصرية ومقام القرب من ملكها، ومكانة عالية في نفوس الشعب المصري، من هذه المكانة ومن منطلق الأخلاق النبوية عفى عن اخوته وغضّ الطرف عن ماضيهم، متأمّلاً في مستقبل صالح لهم ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢] فأمّنهم وأدخلهم مصر للإقامة الدائمة فيها.

وهكذا دخلوا مصر من أبوابها العليا ومن أوسع أبوابها، من بوابة الملك نفسه، وقبل الحديث عن النقلة النوعية الكبيرة في نمط حياتهم في مصر، يجدر أن نذكر عددهم عند الدخول.

عددهم عند الدخول:

أشار القرآن الكريم إلى عدد بني إسرائيل وقت دخول مصر في سورة يوسف عليه السلام، في مضمون الرؤية التي رآها يوسف والتي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]
وقد تحققت الرؤيا بدخول يعقوب وبنيه مصر وسجدوا ليوسف كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]
فالأحد عشر كانوا هم إخوته الذين سجدوا له وأما الشمس والقمر فأبواه، ومن ثمّ يكون عددهم أحد عشر، وإذا أضفنا إليهم يوسف وأبويه يصير العدد ثلاثة عشر رجلاً وامرأة.

هذا هو العدد الذي ذكره القرآن الكريم، ولا مانع من احتمال أن يكون لهؤلاء الأحد عشر رجلاً أبناء يمكن إضافتهم إلى هذا العدد، فمع أعلى الاحتمالات لا يمكن أن يزيد عددهم عند دخولهم مصر أكثر من سبعين ما بين رجل وامرأة وطفل. إن لم يكن أقلّ من ذلك، هذا إذا احتملنا أن لكل واحد من الأحد عشر له من الأبناء ما بين خمسة إلى سبعة، ومن ثمّ لا مانع من قبول ما جاء في سفر التكوين (٤٦-١٤) بأن عدد بني إسرائيل عند دخولهم هو سبعون نفساً.

ومن ثمّ قد كان دخولهم مصر بهذا العدد القليل الذي لا يكاد يُذكر لم يلتفت إليه أهل مصر ولم يعطوه أهمية، حيث إنه لم يشكل أي خطر، أو تهديد لهم خاصة إذا عرفنا الحالة التي كانوا عليها في أثناء دخولهم.

صفة الدخول:

تردد بنو يعقوب على مصر قبيل دخولهم الأخير ثلاث مرات في زمن الجدب والقحط الذي أصاب الناس في مصر والمناطق التابعة لها حتى الشام وبلاد الرافدين، وكان سبب دخولهم الاستجداء وطلب المعونة الغذائية من الحكومة المصرية التي قد تنبأت بوقوع القحط بسبب الرؤيا التي رآها الملك وفسرها له يوسف عليه السلام في القصة المثيرة التي قصّها القرآن الكريم في سورة يوسف.

وذهاب أولاد يعقوب لطلب المعونة الغذائية من مصر يدلّ على أنهم كانوا يعيشون في البراري، والقفار الواقعة تحت سلطة ملوك مصر، وقد كان دخولهم أول مرّة لطلب المعونة فعرفهم يوسف ولم يعرفوه، ثم أعادهم ولم يعطهم شيئاً حتى يأتوه بأخيه الشقيق ليوفي لهم الكيل، فلما رجعوا إلى أبيهم واستعطفوه في أخذ أخيهم معهم وهي المرّة التي أمرهم أبوهم دخول مصر من أبواب متفرقّة ولا يدخلوها من باب واحد هذه المرّة ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَقَالَ يَابَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٦٧-٦٨]

وحيث إنّ هذا القول كان وصية من يعقوب عليه السلام لأولاده عندما

دخلوا مصر في المرّة التي سبقت دخولهم الأخير لابدّ وأن يكـون في طيات تلك الوصية غاية أو حكمة أرادها يعقوب، خاصة وهو النبـيّ الـذي أعطاه الله سبحانه وتعالى علماً ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ ولكن الله سبحانه وتعالى لم يبين تلك الحكمة ولم يبينها يعقـوب نفسـه، وإنما هـي حاجـة في نفسه قضاها. ومع ذلك لابدّ من وقفة أمام هذا القول لاستنباط الحكمة التي تضمنتها نصيحته ولولا خوض المفسرين فيها لما خضنا.

والغرض من البحث في هذه المسألة هو تصحيح ما ارتكز في أذهان المسلمين من استنباط خاطئ للحكمة التي في نفس يعقوب.

إن ما عليه جمهور المفسرين لهذه الآية أن يعقوب عليه السلام أوصى أبناءه بدخول مصر من أبواب متفرقة، وألاّ يدخلوها مجتمعين من باب واحد، كان قصده من ذلك كما قال بعض المفسرين: هو أنه خشي عليهم من الحسد والعين التي يمكن أن تصيبهم إن دخلوا مجتمعين، وهذا القول هو المشهور، ومن ثمّ اشتهر بين الناس حتى أصبح كأنه هو الحقيقة التي كانت بالفعل في قلب يعقوب والتي أخفاها ولم يبدها.

وذهب بعض آخر من المفسرين الى رأي آخر: هو أن يعقـوب قصد من ذلك أن يتجنب أولاده قطّاع الطرق.

وقال بعض ثالث: إن يعقوب أوصى أولاده بذلك حتى لا تثير غـيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم[1].

---

[1] يراجع كتب التفاسير خاصة تفسير ابن كثير.

وهذه الأقاويل كما هو الظاهر ليس لها بناء علمي أو بناء سندي وإنما هو التخرص، والتخمين.

على كلّ حال هناك ثلاثة أقوال:

الأوّل: الحسد والخشية من العين وهذا ما قاله ابن عباس، والسدي، وغيرهما: إن يعقوب أمر أبناءه بالدخول من أبواب متفرقة خشية عليهم من العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه.

إن هذا القول مهما كان مصدره قول ساذج، لم يتصل سنده إلى ابن عباس، ولا إلى السدي بسند صحيح، فلنا أن نتصور مجموعة من البدو حفاة عراة قد أثّر فيهم الجوع والمرض ونال منهم طول السفر وحياة البدو يدخلون مصر بقصد الحصول على ما يسدّ رمقهم بتذلل ومسكنة، كما صوره القرآن الكريم ﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾ [يوسف: ٨٨].

فهل مثل قوم على تلك الحالة المزرية والتي صورها القرآن هذا التصوير الرائع تستدعي الحسد وعيون الناس، خاصة إذا كانوا داخلين مصر الحضارة، مصر النيل، مصر القصور والجمال؟

فإن من كانت حالته كهذه الحالة إن لم تستجلب السخرية من الناس فهي على الأقلّ تستجلب شفقتهم، فقوم مسّهم الضرّ وجاءوا بحثاً عن الصدقة،

لا يمكن أن يكونوا في حالة يُحسدون عليها، ولا يمكن تصورهم في منظر بهي، أو هيئة حسنة، بل نتصورهم شُعث غُبر من الضرّ الذي مسّهم والفاقة التي هم فيها، وكثرة التردد والتنقل بين أبيهم الذي يعيش على حدود فلسطين والملك الذي يعيش في وسط مصر، وإذا كان يخشى عليهم من الحسد والعين كما قيل. فلماذا لم يخش عليهم في المرتين السابقتين؟.

وأما القول الثاني: بأنه خشي أن يُدخلوا في نفس الملك غيرة من كثرتهم، وفتوتهم فهو مردود بما أسلفناه، ويزيد في رفضه هو أن يعقوب عليه السلام أوصى أولاده بالتفرق في دخول المدينة وليس في الدخول على الملك، وهناك فرق بين دخول قصر الملك أو إلى المكان الذي تُوزّع فيه الصدقات والمؤن، وبين دخول أسوار مصر. فقد كان لازماً عليهم أن يدخلوا جميعاً على الملك لإحضار الأخ الذي لم يحضروه معهم أوّل مرّة **﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ۞ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِي﴾** [يوسف: ٥٩-٦٠].

إذاً فقد كان من الضروري أن يدخلوا على الملك جميعاً لكي يوفّيَ لهم الكيل.

والشيء الذي أراه من ذا وذاك في استبعاد غيرة الملك من بني إسرائيل من أساسه، هو أنه لا يعقل أو يتصور أن يدخل في قلب ملك مصر الذي تجري الأنهار من تحته، والذي يملك أكبر قوة حكومية في

المنطقة، والذي له اليد العليا عليهم وهو المتصدّق عليهم أن يدخل قلبه غيرة أو حسد من عشرة رجال جاء بهم إليه الجوع والفاقة يطلبون منه الإحسان والصدّقة مهما كان شأنهم، ومهما كان بهاؤهم إن كان لهم شأن أو كان لهم بهاء.

أما القول الثالث الذي ذكروه وهو خشية يعقوب على أولاده من قطّاع الطرق فأوصاهم بالتفرق. قول يستبعد قبوله أو صدوره من يعقوب النبيّ العالم لما علمّه الله لأن التجمع والوحدة أولى بالوصية في مواجهة قطّاع الطرق، والفرقة أدعى إلى طمع القطّاع.

بالإضافة إلى أن التفرق الذي قصده يعقوب هو التفرق عند الوصول إلى المدينة ودخولها من أبواب متفرقة وليس في طريقهم إليها، ولو كان المراد فعلاً هو الخشية من قطّاع الطرق لكانت الوصية بتفرقهم تكون عند عودتهم من مصر محمّلين بالمؤن والخيرات، وليس في حالة ذهابهم إليها حيث لم يكن معهم إلاّ الرث من الثياب التي يلبسونها.

والظاهر أن هذه الأقوال كانت بقصد وضع مسحة من الهيبة والجمال لبني إسرائيل عند دخولهم مصر، ولفت الانتباه عن حالة البؤس والفقر والحاجة التي كانوا عليها قبل دخولهم إليها.

وبشيء من التدبر والملاحظة في السياق القصصي وأحداث القصة يمكن إدراك الحاجة التي في نفس يعقوب، والتي دعته إلى وصيَّة أولاده بدخول مصر متفرقين، وأهم ما يمكن الاعتماد عليه في إدراك حاجة

يعقوب هو معرفته بنفسية أبنائه وأخلاقهم التآمريّة، ويعرف الحالة المرضية التي استعصى عليه علاجها فقد سبق منهم أن اجتمعوا على بيع أخيهم يوسف ليخلو لهم وجه أبيهم. فهو يعلم أنهم لا يجتمعون ولا يتفقون على خير أبداً، ويعلم أنّ نفوسهم دائماً ما تسوّل لهم الشرّ، والفساد، والتآمر وقد سبق منهم ذلك.

ويعلم أيضاً أنّهم سيدخلون مصر التي تحظى بالخير والأمان والملك المستقر، وتحظى بالقوة والغلبة، وأما أبناؤه فهم جوعى بؤساء. يمكن أن تسوّل لهم أنفسهم أمراً يكون فيه هلاكهم إن اجتمعوا.

فإن كانوا قد نجحوا في التعاون على حرمان يعقوب من ابنه يوسف، فليس معنى ذلك نجاحهم في أي مؤامرة يمكن أن يجتمعوا عليها في مصر، فإن ارتكاب أي حماقة أو عمل شائن منهم سوف يؤدي لا محالة إلى هلاكهم جميعاً، ولن يغني عنهم أبوهم من الله سبحانه وتعالى شيئاً لأنهم إن أُخذوا فسوف يكون هلاكهم بأيديهم، لذلك أمرهم أبوهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة.

ولعلّ هناك سبباً آخر وهو خوفه من اجتماعهم فتسول لهم أنفسهم شرّاً بأخيهم (بنيامين) كما سبق وأن سوّلت لهم الشر بأخيهم يوسف.

فكما قالوا قبل ذلك لأبيهم في طلب يوسف **﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [يوسف: ١٢] ثم ذهبوا به وألقوه في غيابات الجب وجاءوا على قميصه بدم كذب وقالوا أكله الذئب.

قالوا له في أخيه بنيامين: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف. ٦٣].

هو القول نفسه وإن اختلفت الحجة والسبب، لذلك قال سيدنا يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف. ٦٤] ولم يرسله معهم إلاّ بعد أن أكثروا عليه الرجاء، وبعد أن أخذ منهم موثقاً وعهداً ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقاً مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلاَ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] فنلاحظ أن يعقوب أرسل ابنه (شقيق يوسف) معهم على كره منه وحذر من أن يفعلوا به كما فعلوا بأخيه يوسف من قبل، فأمرهم بالتفرق وعدم الاجتماع حتى لا يدفعهم اجتماعهم إلى التآمر على فعل الشر بأخيهم.

ومن الآيات التي وجهها نقلة التراث الإسرائيلي إلى تراثنا لرسم صورة حسنة لجيلهم الأول قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وإخوته آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] وقد فسّر بعض المفسرين هذه الآيات الشريفة على أنّ الآيات هي أن يوسف وإخوته علامات ورموز مثالية للناس أي أنّ يوسف وإخوته هم الرموز والعلامات المثالية للسائلين والمريدين.

والغريب أن يشتهر هذا القول ويصبح كأنه الحقيقة المرادة من الآية، ولكن هذا القول لاشكّ لا يرضى به العارفون باللغة العربية التي هي لغة النصّ القرآني حيث لا يتفق ذلك مع سياق الآيات.

وقد ذكرت قبل ذلك أنّ فهم أي موضوع مركب من جزئيات فهماً صحيحاً غير ممكن إذا نظرنا إلى كلّ جزئية على حدة دون النظر إليها كوحدة ضمن الوحدات المركب منها، وقوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وإخوته آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾** [يوسف: ٧] تمهيد، أو افتتاح، أو تنبيه وتشويق لذكر قصة يوسف وإخوته، فبعد ذكر الآية مباشرة شرع الله سبحانه في سرد القصة **﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾** [يوسف: ٨].

وقبلها قال تعالى: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ﴾** [يوسف: ٣] ومن ثمّ يكون قوله: **﴿لقد كان في يوسف وإخوته ...﴾** بمعنى لقد كان في قصة يوسف وإخوته آيات للسائلين، أي أنّ الآيات في القصة وليست في يوسف وإخوته، والآيات هنا بمعنى العبر والمواعظ التي يمكن استفادتها من القصة نفسها، منها على سبيل المثال: انتصار الحق على الباطل.

ومنها: غلبة الإرادة الإلهية على التآمر الإسرائيلي.

ومنها: التسامح والعفو، وغير ذلك من عبر ومواعظ تستنبط من القصة.

وأهم ما يمكن الاستفادة منها من عبر هو أن الصلب الذي خرج منه يوسف النبيّ عليه السلام قد خرج منه أشرار نافسوا الشيطان في سلوكه، وقدرة الله على إخراج الأموات من الأحياء، فقد أخرج هؤلاء الأموات من صلب يعقوب عليه السلام وكذلك الصراع الأبدي بين قوى الشر

المتمثلة في بني إسرائيل وبين قوى الخير المتمثلة في يوسف ويعقوب مهما كانت صلة القرابة النسبية بين الطرفين.

ولو سلمنا جدلاً بصحة القول بأنّ الآيات هي العلامات والرموز المثالية وأن يوسف وإخوته هم هذه العلامات والرموز فالقصة تؤكد أن يوسف في جانب وإخوته في جانب آخر، وهم الطرفان اللذان يمثلان قصة الصراع فيكون يوسف مثالاً، ورمزاً للخير، والوفاء، والتسامح، والصبر، والعلم، والعفة، وغيرها من صفات تليق به عليه السلام، وإخوته رموزاً للشرّ، والخيانة، والحقد، والحمق، والجهل، وغيرها مما يليق بهم.

ومما تقدم نستنتج أن حال بني إسرائيل عند دخولهم مصر حالة مزرية على جميع الأصعدة. فعلى الصعيد الاقتصادي فقر وعوز وجوع، وعلى الصعيد الأمني خوف وهلع وقلة عددية، وعلى الصعيد الاجتماعي عدم ثقة متبادلة بين أفراد أسرة واحدة وكل منهم يحمل بغضاً وحسداً لأخيه.

هذه هي الصورة التي رسمها القرآن الكريم لبني إسرائيل عند دخولهم مصر.



قصة الصراع الفرعوني الإسرائيلي

إن التعاطف الحاصل في نفوس المسلمين مع بني إسرائيل في قصة صراعهم مع فرعون، وحصر النقمة على فرعون دون خصومه رغم وصف القرآن الكريم لهم بأبشع الصفات وأولاها بهم، ناتج عن الخلط بن صراع فرعون مع بني إسرائيل وبين صراعه مع موسى، ثم الخلط بن صراعه مع موسى قبل نبوّة موسى وصراعه معه بعد النبوّة.

فكل صراع من هذه الصراعات الثلاثة له أسبابه ودوافعه وملابساته التي تختلف عن الآخر، فأسباب الصراع بين فرعون وبني إسرائيل تختلف عن أسباب الصراع بينه وبين موسى، وأسباب صراعه مع موسى قبل النبوّة تختلف تماماً عن الأسباب بعد النبوّة.

لذلك يستلزم أن نبحث في كلّ صراع منها منفرداً لتنجلي الحقيقة في قصة الصراع الفرعوني الإسرائيلي.

ولكنه قبل الخوض في البحث عن تفصيلات وأسباب الصراعات الفرعونية الإسرائيلية يلزم رسم صورة لحياة بني إسرائيل في مصر في الفترة الزمنية الواقعة بين زمن الدخول إلى زمن الخروج، خاصة بعد موت يوسف عليه السلام.

وكذلك لابدَّ من رسم تصور عام للأوضاع السياسية والاجتماعية في زمن فرعون الذي حدث الخروج في زمانه، والذي هو أحد الأطراف الأساسيَّة في قصة الصراع مع بني إسرائيل، لأن هذه التصورات تكشف عن واقع شعب إسرائيل في مجريات الأحداث في مصر، ودورهم في إثارة الفتن والفوضى في هذه الفترة الزمنية.

ومن خلال ذلك نستطيع فهم وإدراك أبعاد الصراع بين الأطراف، وأسبابه وملابساته. ومن ثمَّ نستطيع وضع أيدينا على الميزان الصحيح الذي نزن به أحكامنا على كل طرف من الأطراف المتنازعة، وألاَّ تتحكم فينا العواطف والأهواء فنميل في أحكامنا إلى طرف دون طرف آخر.

وحيث إنَّ الدائرة أو القاعدة التي ينطلق منها البحث حول هذه الأمور هي دائرة القرآن الكريم فلا بدَّ إذاً من الخروج عن الخط اليهودي الإسرائيلي في توجيه الآيات إلى طرف بني إسرائيل، ولفت النظر عن جرائمهم التي لا تقلُّ عن جرائم فرعون.



بنو إسرائيل في الفترة
ما بين يوسف وموسى

وهي الفترة التي قضاها بنو إسرائيل ما بين دخولهم مصر حتى خروجهم منها.

ذكرت أن عدد بني إسرائيل الذين دخلوا مصر في زمن يوسف لا يتجاوز سبعين نفساً بين رجل وامرأة، هذا العدد الضئيل عندما يدخل بلداً مثل مصر لا يشكّل عليه خطراً، وإنما الخطر يكمن في دخولهم من الباب العالي أي عن طريق السلطان، وفرض حمايته لهم، وتكمن الخطورة كذلك في النقلة النوعية لبني إسرائيل الذين جبلت طباعهم على الشر والأثرة وحب امتلاك ما بأيدي غيرهم.

فقوم كانوا حفاة عراة بدواً أعراباً، قساة أجلافاً، خائفين منبوذين، يدخلون مصر بأمان، ويعيشون مع أهلها الذين يتصفون بالمدنية والحضارة والنظام الاجتماعي.

فهل نتصور أن تلتقي الطبيعتان: طبيعة أهل مصر وطبيعة بني إسرائيل مع التناقض والتباين بينهما؟

فالأخلاق الحضرية لا تلتقي بـالأخلاق البدويـة، والنفـوس المضطربـة لا تتلاءم في العيش مع النفوس الهادئة المطمئنة، والسلوك العدواني الشرير لا يتفق إطلاقاً مع السلوك المسالم.

فشتان بين سلوك مجتمع صغير دخيل يتسـم بـالبداوة والتسـيب وبـين سلوك مجتمع مدني حضاري تحكمه قوانين ونظم اجتماعية متطورة.

وهذه الحالة في التباين السلوكي لا شكّ في انعكاسها سلباً علـى بنـي إسرائيل بصفتهم الطرف الدخيل، والأقل، فإن هذا التباين يؤثر بـدوره في نفسيتهم، فيشعرهم بالدونية أمام الشـعب المصـري مـن جهـة، ويشـعرهم بالرفعة لأنهم اخوة يوسف صـاحب المكانـة السـامية في مصـر ودخولهـم مصر بأمره وأمانه يجعلهم يعيشون في حالة ازدواجية.

فالشعور بالدونية الاجتماعية مع التكبر والتعالي المزعوم يسبب حالـة من الخلل النفسي، إذا أضفنا إلى ذلك نفوسهم الأمارة بالسـوء، والسـلوك البدوي الخشن، يمكننا في هذه الحالة أن نرسم صورة ذات معالم واضحـة لحياة بني إسرائيل في مصر زمن الحكومة التـي ارتقـى فيهـا يوسـف. فـلا ريب أن القلوب والنفوس التي حقدت، وحسدت أخاهم علـى قربـه مـن أبيه فتآمروا عليه وباعوه بثمن بخس أن يكون لهم ممارسات وسلوك ممـاثل في الشعب المصري، فلابدّ من تآمر، وحسد، وحقد،...،...، لاكتسـاب ما لا يستحقون، والحصول على ما في أيدي غيرهم.

لذلك لا نسـتبعد إطلاقـاً قيـام بنـي إسـرائيل بجرائـم وممارسـات بـين

المصريين ظهرت نتائجها حتماً بعد وفاة يوسف عليه السلام.

فاعتمادهم على انتمائهم النسبي ليوسف قد يكون أكسبهم شيئاً ما في نفوس المصريين فتغاضوا عن ممارساتهم وسلوكهم المنافي للعادات والتقاليد المصرية.

إلاّ أنّ هذا التغاضي لا يدوم لأنها حالة عرضية تزول بزوال السبب، وينقلب الأمر بعدها إلى عكسه.

فمثلاً: إذا نظرنا إلى رجل ينتمي نسباً إلى رسول الله، أو إلى أي رجل صالح كائناً من كان ثم رأينا سلوكه وأخلاقه تتنافى مع هذا الانتماء، أو تخالف ما نتوقعه منه، فمن الطبيعي أن يكون ردّ الفعل أقوى وأشد من مثله في غيره، وتنفر النفوس منه أكثر من غيره ممن يشابهونه في السلوك والأخلاق.

ومثال آخر: إذا رأينا ابن سلطان، أو ملك، أو رئيس، أو وزير، أو ما شابههم يستغل انتماءه، فيأتي بالمفاسد والقبائح، فلابدّ أن تنفر النّفوس منه، ويتحول هذا النفور بعوامل الضغط الخارجي إلى بغض وكراهية في القلوب، ثم تتحول إلى عداء لدود يخرج على شكل بركان من الغضب بمجرد تغير الزمان، وتحول الأمور، وزوال المكانة.

وهذه الحالة يصحّ أن تكون قاعدة اجتماعية، من خلالها يمكن استنباط ضرورة تغير الأوضاع الاجتماعية لبني إسرائيل في مصر بعد زمن يوسف عليه السلام.

فالكراهية التي بدت من الشعب المصري للضيف أو الدخيل الثقيل صاحب الطبيعة الأنانية، والتعالي غير المسوغ، لابدّ وأن تكون قد أدّت إلى عزلته وانزوائه، وأصبح ضيفاً غير مرغوب فيه.

فكراهية المصريين لشعب بني إسرائيل له ما يبرره، وله دوافعه المنطقية.

والواقع الملموس يؤكّد أن مشكلة شعب إسرائيل تكمن فيهم وليس في غيرهم من الشعوب، فهو شعب مكروه لذاته، فأينما حلّ، وأينما ارتحل كان مسبوقاً بكراهية الشعوب حوله، لأنه يحمل في طيات نفسه بذور الكراهية والفتنة، والحقد، والحسد يذروها في كلّ أرض يحلّ بها.

على أيّ حال فقد استمرّ التنائي والنفور بين شعب مصر وبين الضيف الثقيل والدخيل البغيض حتى خرجوا منها في زمن موسى عليه السلام.

ولابدَّ من القول إن هذا البحث مقصور على التصورات التي رسمها لنا القرآن الكريم، أو التي يمكن تصورها من خلال السرد القصصي مع ضميمة معرفتنا بالطبيعة الإسرائيلية التي رسمّها القرآن وبيَّن معالمها، وتفصيل البحث حول حياة بني إسرائيل في مصر الممتدة من دخولهم حتى خروجهم لابدَّ من الرجوع فيها إلى كتب التاريخ والآثار التي لم تسلم غالباً من العبث اليهودي، ولكني ذكرت ذلك كمقدمة تصلح أن تكون قاعدة ننطلق منها في بحثنا حول قصة الصراع الفرعوني الإسرائيلي كما سنذكره إن شاء الله تعالى.



الوضع العام في مصر زمن فرعون

رسم القرآن الكريم صورة عامة للحالة الاجتماعية والسياسية في مصر زمن فرعون الذي خرج بنو إسرائيل في زمانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤] ﴿... وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[يونس: ٨٣] ﴿..فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾[المؤمنون: ٤٦] ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[الدخان: ٣١].

هذه الآيات تشير بوضوح إلى الحالة السياسية والاجتماعية في مصر. فإنّ قوله تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ وما في معناها من الآيات تشير إلى الحالة السياسية.

وقوله تعالى: ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ يشير بها إلى الحالة الاجتماعية وسياسة فرعون في سياسة بلاده.

أولاً: الحالة السياسية.

(إن فرعون علا في الأرض)

(إن فرعون لعال في الأرض)

(وكانوا قوماً عالين)

(إنه كان عالياً)

أخبار تؤكّد علو فرعون وقومه وسيطرتهم على مساحات كبيرة من الأرض والشعوب، فإن معنى العلو في الأرض تعني بأصل الوضع اللغوي: التفوق وبسط السلطة على الناس، وإنفاذ القدرة والسلطة فيهم.

والمعنى المراد من (الأرض) هي الأرض المعهودة التي تضم عادة البلاد والمدن التي تكون تحت سيطرة الفراعنة، وهي مصر وفلسطين وبلاد الشام حتى بلاد ما بين الرافدين في العراق.

فقوله تعالى: **﴿إن فرعون لعال في الأرض﴾** أي اتسعت وتمكنت سلطته وقدرته في الأرض.

صحيح قد تستعمل صيغة (علا في الأرض) كناية عن التجبر والتكبر في الأرض، ولكنه في مثل هذه الحالة تكون الصيغة قد خرجت عن الأصل الذي وضعت له إلى المعنى الكنائي، وتحتاج في هذه الحالة إلى قرينة تصرف اللفظ أو الصيغة التي خرجت عن الأصل إلى المعنى الجديد المجاز، ولا شكّ أن فرعون تجبّر في الأرض، وتكبر وأفسد فيها، ويمكن اعتبار ذلك قرينة على إرادة المعنى المجازى من قوله: **﴿علا في الأرض﴾** ومع ذلك لا مانع من إيراد المعنيين معاً إذا لم يكن بينهما تعارض، ففرعون حقاً قد تجبر وتكبّر، وظلم وأفسد في الأرض، وكذلك علا في الأرض واتسعت سلطته فيها، وامتدّ نفوذه على الشعوب والأمم المجاورة له. ومن ثمّ فقد كانت سلطة فرعون السياسية عالية ومتسعة ومتسمة بمظاهر العظمة والعلو.

وهذه هي الحالة السياسية لفرعون وامتداد قدرته وسلطانه مع ظلمه وجبروته.

ثانياً: الوضع الاجتماعي.

(وجعل أهلها شيعاً) هذا الخبر يبيّن حالة التدهور في المجتمع المصري في عهد فرعون، فقد كان التمزق الاجتماعي والتمييز العنصري من أهمّ وأبرز معالم الحياة الاجتماعية.

وحيث إنّ مصر كانت أكبر حاضرة في المنطقة، أو بعبارة أخرى عاصمة المنطقة بكاملها، فقد كان يجتمع فيها عناصر وأعراق بشرية عديدة مثل: الغجر الذين خرجوا من مصر وتاهوا، وتشتتوا في الأرض في ظروف لم ينقلها التاريخ بشكل موثوق به.

فالمجتمع في مصر كانت تسوده الفوضى المتعمدة من قِبل السلطة الحاكمة اعتقاداً منهم أنها سياسة ناجحة في الحفاظ على الملك والعمل على ديمومته.

ولكن ذلك غالباً ما ينقلب فيه السحر على الساحر فيدمر المجتمع وتزول بسببه الممالك والحضارات.

فقد خلق فرعون الفوارق بين الطبقات الاجتماعية والعناصر والأعراق، وهذا العمل هو السلوك المفضّل عند الحكام والأنظمة قصيرة النظر، وهذه السياسة إما أن تكون من باب النظرية القائلة (فرق تسد) أو من باب إشغال الشعوب بالنعرات العنصرية والطائفية عن النظر في سلوك

الحكومات وممارساتهم. لأن الشعوب في تلك الحالة تكون في غفلة وشغل يشغلها عن مراقبة الحكومات ومؤاخذتها.

وعلى كلّ حال فقد كان الوضع الاجتماعي في غاية الفوضى والتمزق العرقي والطائفي، أي أنه كان على العكس تماماً من الوضع السياسي الذي كان في غاية الازدهار والاتساع والغلبة.

موقع بني إسرائيل من الأحداث في مصر.

سكت القرآن الكريم عن ذكر بني إسرائيل بعد ذكر دخولهم مصر في زمن يوسف ثم عاود ذكرهم في زمن فرعون الذي تم الخروج في زمانه، أي أنه تحدث عنهم في دخولهم وفي خروجهم، وسكت عن الفترة التي توسطت زمن الدخول والخروج، وقد ذكرنا أن حياتهم في مصر في هذه الفترة كانت حياة عزلة ونفور.

ولكن فترة الانعزال لا يمكن أن تستمرّ خاصة وأن بني إسرائيل يزداد عددهم من جيل إلى جيل، وهذه الزيادة العددية تحول دون الانعزال، وفي الوقت نفسه تدعو إلى التمرد والعصيان والتأثير المباشر في المجتمع.

ومع ذلك يبقى شعب إسرائيل هو شعب إسرائيل لا تتبدل طبائعه، ولا يتغير ما بأنفسهم، فهذه الطباع يتوارثونها جيلاً بعد جيل بدعوى الحفاظ على الهوية والذات، ولا يمكن أن نتصور أن تمرّ حالة الفوضى والفساد في تلك الحقبة دون أن يستغلها شعب إسرائيل في صالحه.

صحيح لقد فرق فرعون شعبه وأفسد في الأرض وخلق الفوارق

الطبقية، وهذا السلوك في سياسة فرعون من أهمّ عوامل إثارة الفتنة وإشعال نارها، وبث روح الحقد والكراهية في أفراد المجتمع الواحد، وهذا فساد وإسراف لا شكّ فيه، ولكن الذي لا يقلّ عنه إجراماً، وإسرافاً، وفساداً من يستغل هذه الأوضاع، ويعمل على الاستفادة الخاصة منها ويعمل على استمرارها وتزكيتها، وقد كان ذلك من بني إسرائيل رغم قلتهم العددية وضعف إمكاناتهم وسيأتي الدليل على ذلك في مكانه إن شاء الله تعالى. ولهذا استضعفهم فرعون وناصبهم العداء **﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم..﴾** وهذه الطائفة المعنية في الآية هم طائفة بني إسرائيل كما هو ظاهر في النص.

قال بعض المفسرين المعاصرين[1]، في تفسيره قوله تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم...﴾ الآية (إن فرعون كان من القبط – أهل مصر – الذين هم أقلية فلا يمكن أن تحكم الأقلية التي لا تعد شيئاً على الأكثرية إلاّ بالخطة المعروفة (فرق تسد) فهم مستوحشون من كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة ويستوحشون منها أبداً) إلى أن قال: (أجل إن فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتين: (القبط) وهم أهل مصر الأصليون و(الأسباط) وهم المهاجرون إلى مصر من بني إسرائيل) انتهى.

---

[1] تفسير (الأمثل) لـ (مكارم الشيرازي) ذكرت المصدر من باب جريان العادة حيث لو لم يكن رأيه منتشراً لما ذكرته من أصله لعدم أهميته العلمية، وعدم الأهلية العلمية واضح للقارئ من خلال القدر الذي نقلته عنه.

إن هذا الكلام من ذلك المفسر بعيد كلّ البعد عن سياق الخطاب القرآني، وبعيد عن وحدة الموضوع، ومن ثمّ فهو خبط عشواء، وقول جزاف ناتج عن التخبط بين مضمون النص القرآني وما هو مرسوم في الأذهان عن الصراع الفرعوني الإسرائيلي، ففي قوله هذا عدة مسائل.

أولاً: قوله: (إن فرعون كان من القبط الذين هم أقلية) إذا ضممنا قوله هذا إلى قوله بعد ذلك (أجل إن فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتين الأقباط وهم أهل مصر الأصليّون، والأسباط وهم المهاجرون إلى مصر من بني إسرائيل) بضميمة القولين نستنتج أنه يرى أن أهل مصر كانوا هم الأقلية وأن بني إسرائيل هم الأكثرية، وهذا القول في منتهى الغرابة فكيف يكون أصحاب الأرض الأصليون هم الأقلية ومجموعة مهاجرة هم الأكثرية؟

والأغرب منه أن يقول هذا وهو يفسر الآية الشريفة التي تتضمن قوله: (يستضعف طائفة ...) والطائفة هم بنو إسرائيل، وكلمة يستضعف أي أنه يستقل عددهم ويستهين بقدراتهم، حيث لا قدرة لهم، لأن لفظ (يستضعف) عام يشمل العدد والقدرات والإمكانيات وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٤].

دليل آخر على أنهم من الأقليات التي كانت تعيش في مصر وليسوا أكثرية كما قيل. حيث لم يتجاوز عددهم الآلاف التي لا تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة وليسوا بمئات الألوف كما قيل ونقل عن بعض المفسرين بالمأثور. كما قال بعض المفسرين: (إن عددهم عند خروجهم

من مصر سبعين ألفاً) وقال آخرون (بل كان عددهم سبعمائة ألف) وقال فريق ثالث (كان عددهم ألف ألفٍ) أي (مليون). وكل هذه الأرقام والأعداد من باب التخرص حيث لا مصدر لها.

وظاهرة المغالاة في الأرقام منتشرة بشكل كبير في كتب التاريخ عموماً على سبيل المثال: ذكر المؤرخون لموقعة الجمل بين الإمام علي والسيدة عائشة أن عدد القتلى في هذه الواقعة التي لم تستغرق ضحىً من نهارٍ، أي سويعات قُبَيْل الظهر أكثر من (عشرين ألفاً) وهو رقم خيالي، فلو استغرق قتل كلّ فرد دقيقة واحدة لاحتاج الأمر إلى حوالي خمسة عشر يوماً ليكفي قتل هذا العدد الكبير الخيالي.

فالمؤرخون أحياناً كثيرة ينقلون أخبارهم من القصاصين الذين يهتمون بتضخيم الأحداث لجلب الاهتمام وجذب الأنظار والإستماع لقصصهم.

فلو كان بنو إسرائيل يعدون بمئات الألوف لما تصور العقل أن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين عاماً لا يعرفون من أين يخرجون منها.

وإذا كانوا يزيدون على المليون أو يقلّون عنه قليلاً فكيف استضعفهم فرعون، وذبح أبناءهم، واستعبدهم، وفعل بهم ما أخبر به القرآن الكريم؟

فالظاهر أن قول المفسرين هذا يعتمد على قول (وهب بن منبه اليهودي) في تفسير سورة القصص وقوله: (قتل القبط في طلب موسى عليه السلام تسعين ألفاً من بني إسرائيل)، فإذا كان القبط قتلوا تسعين ألفاً منهم فلابدّ أن يكون عددهم أكثر من خمسة ملايين على الأقلّ، وأن

يكون عدد القبط أكثر من عشرين مليوناً كذلك على أقلّ تقدير لو قسمنا الأمر حساب النّسب العرفية، في حين أن عدد مصر في أول قرن العشرين لم يزد عن خمسة ملايين، لوجدنا أن هذه أرقام خيالية لايصدّقها العرف إطلاقاً، فهو ضرب من التخرص والمغالاة المقصودة، والهادفة إلى التشهير بالخصوم.

والملفت للنظر أن وهب هذا حمّل تبعية قتل هذا العدد الرهيب منهم إلى (القبط) كشعب وليس إلى نظام الحكم فيه، في حين أن الشعب المصري كان يلاقي من فرعون أمرّ وأشدّ مما كان يلاقيه غيرهم كما سنبيّن ذلك إن شاء الله.

وأسلوب المسكنة اليهودية والتهويل وبث الشكوى لاستجلاب الشفقة والعطف عليهم، وإظهار أنفسهم بمظهر المظلوم المضطهد، وإظهار أعدائهم بمظهر المتوحشين قساة القلب الغلاظ، أسلوب قديم استمرّ معهم حتى يومنا هذا.

فهم كما يقول المثل المصري: (ضربني وبكى، وسبقني واشتكى) فقد باعوا أخاهم بثمن بخس وحرموه من أبيه ثم (جاءوا أباهم عشاءً يبكون) ولما لم يجدوا من يلقون عليه جريمتهم ألقوها على ذئب بريء. هؤلاء هم أجدادهم، وتلك هي جذورهم.

وبالسلوك نفسه يعيش يهود اليوم، فالوسائل التي استخدمها أجدادهم من قبل يستخدمها الأبناء هذا العصر فالأساطير هي الأساطير،

والسلوك هو السلوك، والوسيلة هي الوسيلة وأذكر لذلك بعض الأمثلة.

فعندما تتبع (هتلر) حفنة من اليهود في (ألمانيا) لخيانتهم وقيامهم بممارسة التجسس لصالح روسيا الشيوعية ضده، اعتقل بعضاً منهم في سجونه التي أطلق عليها اليهود بعد ذلك (معسكرات الاعتقال النازي) صرخ اليهود في كلّ مكان وبكوا وقام إعلامهم بالتهويل وتضخيم المسألة، وصوّروها بأبشع الصور، فادعوا أن معسكرات الاعتقال النازي ضمّت أكثر من ستة ملايين يهودي، وأن هتلر أعدّ لهم المحارق وحرّقهم في أفران غاز أعدها خصيصاً لحرقهم وغير ذلك من تهويل وتبشيع.

وقد قام العالم الباحث الفرنسي (روجيه غارودي) في كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية)[1] بإثبات كذب الدعاية اليهودية، وأثبت بالبرهان والوقائع والتصريحات بطلانها، وأن أفران الغاز المزعومة لم تكن في زمن العداء الهتلري اليهودي.

وقد جاء في العدد (٧٠٢٥) من جريدة الشرق الأوسط بتاريخ السبت ١٩٩٨/٢/٢١م قول لكبير حاخامات إسرائيل (الياهو خودا بخش دوران) جاء فيه (ومن المؤكّد أن آلاف اليهود الإيرانيين غادروا البلاد عقب مجيء الخميني للسلطة. غير أن السبب في ذلك يعود إلى صعوبة ممارسة نمط حياة هؤلاء، كطبقة وسطى في ظلّ النظام الجديد. ويذكر أن

---

[1] أحيل القارئ إلى مراجعة هذا الكتاب الذي تناول فيه مؤلفه الباحث (روجيه غارودي) أساطير وأكاذيب المحافل اليهودية التي أسسوا على أساسها دولة إسرائيلية.

٢٠ ألف شخص فقط من جملة الـ ٣,٥ مليون الذين غادروا إيران عقب الثورة الخمينية من الجالية اليهودية. إذ غادر هؤلاء في الغالب إلى الولايات المتحدة وليس إسرائيل. ومن بين الـ ٨٠ ألفاً الذين أعدمهم نظام الزعيم الإيراني الراحل آية الله الخميني...) انتهى.

ثم نسب الحاخام هذه المعلومات إلى تقارير منظمة العفو الدولية.

هذا هو كلام كبير حاخامات إسرائيل كما ذكرت الجريدة المذكورة.

ونلاحظ أن أسلوبه في ذكر الأرقام هو عين أسلوب جده وهب بن منبه في روايته بأن القبط (أهل مصر) قتلوا تسعين ألفاً في البحث عن موسى، وهو عين أسلوب آبائه الذين ذكروا أرقام ضحايا اليهود في معسكرات هتلر.

فالأرقام الخيالية وضعها الحاخام في أسلوب شيطاني، بحيث يتوهم السامع حين سماعها أنه لا شك في صحتها.

فهم يتمتعون بقدرات هائلة على الكذب ولا يستحون منه، فهو ميراث آبائهم. فقد ذكر الحاخام أن عشرين ألف يهودي فرّوا من إيران عُقيب الثورة الإيرانية.

وأن ثمانين ألف آخرين أعدمتهم حكومة الثورة.

وإنّ تعداد اليهود في إيران ٣،٥ مليون يهودي.

في حين أن تعداد الطوائف غير الإسلامية في إيران في أول الثمانينات (مليون ونصف) فقط منهم اليهود، والزرادشتية، والمسيحية بمذاهبها، وأن

اليهود الذين خرجوا من إيران ما بين سنة ١٩٧٩ إلى سنة ١٩٨٨م حوالي خمسة آلاف يهودي لم يعد منهم إلى البلاد حتى الآن (١٦٠٠) والباقي يدخلون ويخرجون بشكل طبيعي واعتيادي.

وأما من دخل منهم السجون في حياة الإمام الخميني بعد الثورة وصدرت ضدهم أحكام بالفعل حوالي (١٣٣) يهودياً قتل منهم اثنان بتهمة التجسس، و(٦٧) سجنوا بسبب مخالفات سياسية، والباقي في جرائم جنائية ما بين سرقة واحتيال ونشر فساد وغيره من المخالفات القانونية المعتادة.

هذه إحصائية دقيقة من واقع السجلات هذا على حسب الإحصائية التي وصلتني من الجهات المعنية في إيران،، ولو نظرنا إلى ما تضمنه قول كبير حاخامات إسرائيل نجد أنه يريد أن يقول إن كل هذه الأعداد التي ذكرها قد سجنتهم أو أعدمتهم الحكومة الإيرانية بسبب دينهم ومعتقداتهم اليهودية.

ولو كان هذا صحيحاً فلماذا أبقت الحكومة الإيرانية على البقية الباقية من اليهود؟ ولماذا لم تفنهم عن بكرة أبيهم مادام سبب ذلك هو أنهم يهوداً؟

ولكن الواقع يكذب (كبيرهم) فإيران قتلت الجاسوس اليهودي كما قتلت عشرات الجواسيس المسلمين عموماً والشيعة خصوصاً، فما نصّ القانون بإعدامه أو سجنه أُعدم أو سجن بغضّ النظر عن دينه وطائفته.

وسأدع مجالاً للقارئ يقارن بين الأرقام التي وردت في المصدرين ليقف بنفسه على حقيقة هذا الأمر.

والحال نفسه نراه كل يوم في فلسطين يسرقون الأرض ويدعون ملكيتها، ويقتلون مئات من الأطفال، والنساء، والشيوخ في مجازر جماعية، ثم يهولون في الغرب إن العرب يريدون إلقاءهم في البحر، أكاذيب وادعاءات وأساطير، أباحها لهم دينهم وهم على نهج أجدادهم سائرون، وكما تقول الحكمة: (إن ملح الله لا يحلو أبداً).

ثانياً: قول المفسر المذكور: (إن فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتين: الأقباط وهم أهل مصر الأصليون، والأسباط وهم المهاجرون إلى مصر من بني إسرائيل).

هذا القول مثل سابقه من الأقوال العشوائية المخالفة للنص القرآني، لأنه جعل بني إسرائيل قسيم المصريين في وطنهم، مع أن الله سبحانه وتعالى أخبر أن فرعون قسّم أهل مصر إلى أكثر من طائفتين (وجعل أهلها شيعاً) أي فرقاً وطوائف متعددة، فكلمة (شيعاً) جمع شيعة، وهي الفرقة من الناس، وقد سموا شيعاً لإتباع كل فرقة بعضهم بعضاً.

صحيح أن القرآن الكريم لم يذكر من الطوائف المتصارعة سوى الحكومة المصرية، وبني إسرائيل، ولكن ذلك لا يعني حصر عدد الطوائف المتفرقة بينهما.

وأما بالنسبة لتسمية بني إسرائيل بالأسباط، فقد كانت بعد خروجهم من مصر وليس قبل دخولهم فيها أو حتى بعد دخولهم ويمكن إدراك هذه الحقيقة من قوله تعالى ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً**

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]

وكلمة الأسباط كانت تطلق على كل بني إسرائيل وليس على بعضهم.

وخلاصة القول إن موقع بني إسرائيل في مصر أثناء حكم فرعون موقع القلة المشاغبة المنبوذة من المصريين، المنعزلة وجدانياً واجتماعياً.

وقد كانت هذه الطائفة هي المطاردة من الحكومة المصرية لأسباب سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.



تفصيل الصراع

بعد بيان الحالة التي كان عليها شعب إسرائيل في مصر، والحالة العامة على الصعيدين السياسي والاجتماعي، والأحداث التي رسمها القرآن عن الأوضاع العامة، ودور شعب إسرائيل فيها نأتي إلى تفصيل الصراع بين فرعون الذي يمثل الحكومة المصرية وبين إسرائيل، فإن هذا الصراع يدور على محورين أساسيين:

أولاً: الصراع بين فرعون وإسرائيل قبل موسى.

ثانياً: الصراع بين فرعون وموسى.

وينقسم الصراع بين فرعون وموسى إلى مرحلتين:

أ ـ مرحلة الصراع بين فرعون وموسى قبل النبوة.

ب ـ الصراع بين فرعون وموسى بعد النبوة.

وهذا التقسيم، أو بعبارة أدقّ التفصيل والتفريق بين محاور الصراع في غاية الأهمية التي تكشف لنا الحقائق التي اختفت في فوضى الخلط بينها وكاشفة عن دور شعب إسرائيل في إثارة الفوضى في مصر وهذاهو ما أشرت إليه سابقاً.

أولاً: الصراع بين فرعون وبني إسرائيل قبل موسى

أخبر القرآن الكريم عن صراع وعداء لدود بين فرعون وبني إسرائيل قبل ولادة موسى عليه السلام، وهو صريح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

هذه الطائفة لا ريب هي شعب إسرائيل، فهم المعنيون في الآية الشريفة، حيث إنها تخبر عن وضع المجتمع المصري على وجه العموم (وجعل أهلها شيعاً) ووضع المجتمع الإسرائيلي على وجه الخصوص (يستضعف طائفة منهم) وقوله تعالى: ﴿يستضعف طائفة﴾ مجمل بيّنته الجملة بعده (يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم) أي أنه يقتل الأبناء ويترك البنات أحياءً.

ومن ثمّ فقد كان استضعاف فرعون لبني إسرائيل منحصراً في قتل أبنائهم، وعطف جملة (يذبّح أبناءهم) على جملة (يستحيي نساءهم) التي بمعنى يستبقي بناتهم أحياء يدّل على أن سبب القتل ليس بغضاً ولا عداءاً عنصرياً لهم وإنّما كان لأسباب أخرى عارضة، وليست أسباباً أساسية، حيث لو كانت كذلك لما أبقى فرعون منهم على الأرض دياراً ولم يفرق بين ذكور وإناث كما فعلوا هم مع الشعوب والقبائل كما سأذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

ولو كان فرعون قد ذبح ذكورهم من اليوم الأول الذي تولى فيه حكم مصر الذي امتدّ إلى مئتي عام كما في بعض الروايات[1] لما بقي منهم ذو نفس، ولانقطع نسلهم إلى الأبد.

ومن هنا فقد كان قتله لذكورهم لسبب عارض في وقت محدد، وهذا السبب ذكره المفسرون، نذكر منها على سبيل المثال الفخر الرازي في تفسيره، فقد ذكر في (التفسير الكبير) ما نصه: (أن كاهناً قال له – لفرعون – يولد مولود في بني إسرائيل في ليلة كذا يذهب ملكك على يده، فولد في تلك الليلة اثني عشر غلاماً فقتلهم). وهذا القول لا مانع من قبوله لموافقته للعقل والعرف، وكذلك موافقته لسياق ومجريات القصة.

فإن لجوء الملوك وأصحاب المناصب العليا إلى العرافين عادة قديمة، فكلما ارتفع المنصب كلما زاد الخوف والهلع على فقدانه، فيظلّ صاحبه في حالة ترقب وتلفت وخوف على كرسيّه ومنصبه.

ففي إحدى مؤتمرات (عدم الانحياز) التي انعقدت في الهند، وكان يحضره عدد كبير من الملوك والرؤساء، وكان في الهند آنذاك عرّاف مشهور وقف الرؤساء والملوك على بابه صفوفاً كي يعرف كلّ منهم مصيره ومصير كرسيه، ومَنْ الذي سيقتله أو يخلعه، وعلى يد من ممن هم حوله، وبالسم أم الرصاص أم بالشنق؟

---

[1] لابد من الإشارة إلى عدم اقتناعي بإمكانية أن يحكم شخص واحد شعباً لمدّة كبيرة مثل هذه المدّة المذكورة في روايات ليست صحيحة السند وعدم الإمكان هنا عرفياً.

فهذه الظاهرة منتشرة وليست غريبة، فقد جرت عادة الملوك القدامى وربما الحاليين أن يكون لكلّ منهم منجم، أو كاهن، أو عراف يضرب لـه الرمل، أو ينظر في طالعـه، أو يقـرأ لـه كفـه، أو فنجانـه، وهـذه الظـاهرة سببها حالة القلق والاضطراب والترقب التي لا تفارقهم عادة.

إذاً فقد كان سبب القتل لذكور بني إسرائيل هو خوف فرعون مـن زوال ملكه على يد مولود منهم سيولد في ليلة معينة ذكرها العرافون أو الكهنة.

فالقتل كان لمواليد ليلة واحدة وللذكور دون الإناث.

وهذا يردّ قول وهب بن منبّه اليهودي: إن القبط قتلوا في طلب موسى تسعين ألفاً من بني إسرائيل، حيث لا يتصوّر العقل أن طائفة في زمن فرعون مهما بلغ عددها تلد نساؤها تسعين ألف مولود ذكر في ليلة واحدة.

وأما ما جعل المفسرين يذهبـون إلى القـول بـأن فرعـون استمرّ في قتـل الذكور سنين كثيرة هو اعتمادهم قول (وهـب) الإسـرائيلي مـع عـدم تحققـه عرفاً، أي أنـه لا يمكـن أن يحـدث قتـل هـذا العـدد الرهيـب في ليلـة واحـدة، فاضطروا إلى توزيع هذا العدد الرهيب على عدد سنوات حكم فرعـون تجنبـاً لعدم الإمكان العرفي، وأمـا الاشـتباه في فهـم قولـه تعـالى: ﴿**يذبّـح أبنـاءهم**﴾ بصيغة الجمع الدالة على المبالغة في القتل، أي أنه أكثر الذبح في أبنائهم.

فالحقيقة أن صيغة الجمع تتحقق لو كان فرعون قـد قتـل عشـرة أو اثنـي عشر ذكراً، وأما استعمال صيغـة المبالغـة فبقصـد المبالغـة في الفعـل وليـس في العدد، فإن قتـل طفـل واحـد تحـت أي سـبب يعتـبر جريمـة عظيمـة غفرانهـا

مستبعد، وفساد، وإجرام، وإسراف.

وجريمة فرعون هذه ليست أول جريمة من نوعها، ولن تكون آخرها، فكم ارتكب رؤساء وملوك جرائم أفظع منها، وكم سمعنا أحداثاً يشيب لها رأس الوليد، في سبيل الحفاظ على الحكم، ومن ثم لم يخرج فرعون لعنه الله عما هو متعارف عليه بين أمثاله. وسوف نعقد مقارنة بين ما فعله بنو إسرائيل وما فعله فرعون في هذه المسألة.

مقارنة بين سلوك فرعون وسلوك بني إسرائيل:

وإذا قسنا أو قارنا بين جريمة فرعون الذي قال: **﴿أنا ربّكم الأعلى﴾** وجرائم بني إسرائيل الذين ادعوا التوحيد، وأنهم أحباب الله وشعبه المختار في أي مرحلة من مراحل تاريخهم لصرخنا وقلنا: إن فرعون أرحم ألف مرة من بني إسرائيل.

في سفر يوشع الإصحاح السادس فقرة ٢٠ - ٢٤ تقول التوراة: (وكان حين سمع الشعب - بني إسرائيل - صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة وحرّموا - قتلوا - كلّ ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتّى البقر والغنم، والحمير بحدّ السيف وأحرقوا المدينة بالنار، إنّما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في بيت الربّ).

وفي التوراة أيضاً سفر يوشع الإصحاح الثامن فقرة ٢٤-٢٩: (وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية، حيث

لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف حتّى فنوا، أنّ جميع إسرائيل رجـع إلى عاي وضربوها بحدّ السيف، فكان جميع الذين سقطوا في ذلـك اليـوم مـن رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل عـاي، ويوشع لـم يـردّ يـده التـي مدها بالمزراق حتّى حرّم - أي قتل - جميع سـكان عـاي، لكـنّ البهـائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الربّ وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم، وملك عاي علّقه على الخشبة إلى وقت المسـاء، وعند غروب الشمس أمر يوشع فأنزلوا جثّته عن الخشبة وطرحوهـا عنـد مدخل باب المدينة وأقاموا عليها رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم).

وفي التوراة أيضاً سفر قضاة الإصحاح ٣ الفقرة ٢٩-٣١.

فضربوا - أي بنو إسـرائيل - قتلوا مـن مـوآب في ذلـك اليـوم نحـو عشرة آلاف رجل كلّ نشيط كلّ ذي بأس ولم ينج أحد، فذل الموآبيـون في ذلك اليوم تحت يد إسرائيل، واستراحت الأرض ثمانين سـنة - وكـان بعده شمجر بن عناة فضرب - أي قتل - من الفلسطينيين سـتمائة رجـل بمنساس البقر وهو أيضا خلّص إسرائيل).

وفي التوراة أيضاً سفر قضاة الإصحاح الحادي والعشـرون فقـرة ١٠- ١٢: (فأرسلت الجماعة - شعب إسـرائيل - إلى هنـاك اثنـي عشـر ألـف رجل من بني الياس وأوصوهم قائلين: اذهبوا واضربوا سكان يابيش جلعاد بحدّ السيف مع النساء، والأطفال وهذا ما تعملونه تحرّمون - أي تقتلون - كلّ ذكر وكلّ امرأة عرفـت إضجـاع ذكـر، فوجـدوا مـن سـكان يـابيش

جلعاد أربعمائة فتاة عذارى لم يعرفن رجلاً بالإضجاع مع ذكر وجاءوا بهنّ إلى المحلة – أي إلى أرض يهود – إلى شيلوه التي في أرض كنعان).

وفي التوراة أيضاً سفر قضاة الإصحاح ٣١: (فتجنّدوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كلّ ذكر... وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم، وجميع مواشيهم، وكلّ أملاكهم.

وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار... وقال لهم موسى[1]: هل أبقيتم كلّ أنثى حية... فالآن اقتلوا كلّ ذكر من الأطفال،

---

[1] **تعليق مهم:** أثبتت التوراة لموسى حروباً ينفرّ منها الطبع الإنساني، ولكنّ القرآن الكريم لم يثبت لموسى عليه السلام أي حرب من الحروب التي خاضتها بنو إسرائيل ضدّ جيرانهم من العرب العمالقة وغيرهم، فحروب بني إسرائيل لم تحدث إلاّ بعد وفاة موسى عليه السلام في أثناء التيه الذي تاه فيه شعب بني إسرائيل أربعين عاماً في صحراء سيناء، وقد أشار القرآن الكريم إلى اعتكاف موسى وكفّ يده عن الحروب وتفرغه في فترة التيه إلى محاولة إصلاح شعب إسرائيل والقضاء بينهم

فعندما طلبوا من موسى أن يأكلوا البصل والثوم والفول وغيره طلب منهم الدخول إلى أي مصر من الأمصار الموجودة حولهم ليأكلوا ما طلبوه، فسخروا منه ورفضوا دخول القرية التي أمرهم موسى الدخول إليها فكفّ موسى يده ويأس منهم واعتذر إلى الله. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۞ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥-٢٦]

فالآيات تصرّح بأن موسى سلام الله عليه لم يشترك كما قلنا في معركة من معارك بني إسرائيل وهذا يعني أن قولهم في التوراة في المقطع الأخير الذي ذكرته (وقال موسى لهم...) واقع بين احتمالين لا ثالث لهما. إما أن يكون قولهم هذا كذباً على موسى النبيّ عليه السلام، وإما أن يكون هذا القول لموسى آخر غير موسى النبي، والذي يمكن أن يؤكد الاحتمال الثاني هو أن هذا الكلام الذي نسبوه إلى موسى كلام رجل دموي أو سفاح ولا يمكن أن-

وكلّ امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها، لكنّ جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهنّ لكم حيات).

بنظرة سريعة إلى المقاطع التوراتية التي ذكرتها ندرك الفرق بين جرائم فرعون ودوافعها وبين بشاعة وأهوال الإجرام الإسرائيلي ودوافعه.

ففرعون قتل عدداً محدوداً من ذكور مواليد ليلة واحدة حددها له الكهنة، وكان دافعه في ذلك الحفاظ على ملكه وسلطانه.

وأما بنو إسرائيل فأبادوا قرى ومن فيها بأكملها، وقتلوا بحدّ السيف الرجال، والنساء، والشيوخ، والأطفال، والبقر والحمير ثم حرّقوا البيوت واهلكوا الحرث، وليس لهم أي دافع سوى إشباع الحقد الرهيب في قلوبهم، والتوسع واغتصاب الأراضي، ونهب الذهب والفضة، فشتّان بين السلوكين... فتأمّل.

نعود بعد ذلك إلى العداء وما ذكره القرآن الكريم في العداء الفرعوني لبني إسرائيل وأسبابه وإذا حصرناها نجد أنها منحصرة في سببين:

=يكون كلاماً نبويّاً، ذكرت ذلك لتنزيه نبيّ الله موسى وكليمه صلوات الله عليه مما نسبه إليه هؤلاء القوم. اللهم إلاّ أن يكون موسى التوراة غير موسى القرآن، حيث لا يمكن أن يكون موسى الذي أمر قومه بدخول القرية بتواضع وسلام (أدخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) هو موسى الدموي الذي يأمر بالقتل والحرق وارتكاب جرائم بشعة تقشعر منها الجلود وهذا القول ذهب إليه بعض الباحثين مثل (فرويد) صاحب كتاب (موسى والتوحيد) الذي أثبت فيه وقوع لبس بين موسى النبيّ وبين موسى المدياني الذي ظهر بعد موت الأول وخاض الحروب الدموية مع شعب إسرائيل.

الأوّل: خوف فرعون الدائم منهم بسبب ما غرسه المنجمون في روعه بأن زوال ملكه سيكون على يدٍ إسرائيلية.

الثاني: سعي بني إسرائيل في بث الفساد والإرهاب في الشارع المصري بالشجار والخصام والقتل وغير ذلك، ولا شك أن فرعون هو السبب الأساسي في هذه الأحداث أولاً وأخيراً، فهو الذي جعل شعبه شيعاً، ومن فرقّ شعبه إلى طوائف وأعراق ومذاهب لا ينتظر أن يهنأ بعرشه، ولا ينتظر أن ينعم شعبه بأمان، واستغلال شعب إسرائيل هذه الحالة من الفوضى لبثّ الفتن حفّز فرعون على مناهضتهم ومطاردتهم.

وأما ما قاله بعض المفسرين[1] عن سبب الخلاف بين الطرفين، أن وقوع الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل كان سببه اختلاف عقيدتهم مع عقيدة فرعون لأنهم كانوا يدينون بدين التوحيد دين جدّهم إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. القول ناتج عن خلط في جزئيات الأحداث في القصة، وهذا اللبس بدوره ناتج عن النظر إلى صورة الأحداث من زاوية واحدة أحالت دون النظر إلى الزوايا الأخرى للصورة مما أدى إلى فهم غير صحيح لها.

فقد كان الخلط بين الصراع الإسرائيلي وفرعون والصراع بين موسى وفرعون، وكذلك خلط بين صراع موسى وفرعون قبل النبوّة والرسالة وبين صراعهما بعد النبوة والرسالة، ثم نظر إلى صورة الأحداث من زاوية

---

[1] تفسير في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب.

جبروت فرعون وقوله: (أنا ربّكم الأعلى) هذه النظرة الانزوائية حالت بين رؤية حقيقة بني إسرائيل وحقيقة موقفهم في الأحداث.

فكون فرعون طاغوت، ومسرف، وكذّاب، وفاسق، ومشرك، وغير ذلك من صفات، لا يعني بالضرورة أن يكون خصمه على غير تلك الأوصاف، فإن كان فرعون مشركاً لا يعني أن يكون خصومه بنو إسرائيل موحدين، فالتوحيد ليس منحصراً بينهما بحيث إن لم يكن مع فرعون فلابدّ أن يكون معهم، فالمسألة ليست هكذا حيث لا مانع من وجود خلاف وصراع بين طائفتين من الموحدين، كما لا يوجد مانع من وجود خلاف وعداء بين طائفتين من المشركين.

فلا مانع إذاً من أن يتّصف فرعون بالطاغوتية وتتّصف إسرائيل بنفس الصفة فقد قال فرعون: (أنا ربّكم الأعلى) وهذا كذب، وافتراء.

وقالت إسرائيل: (نحن أبناء الله وأحباؤه) ونحن شعب الله المختار، وهذا أيضاً كذب، وافتراء.

فرعون قتل أبناءهم، وهم قتلوا الأبناء والبنات وحرّقوا الأرض، وأهلكوا الحرث والنسل، فليس هناك فرق بين إجرام وإجرام آخر فشعب إسرائيل لا يقلّ إجراماً وفساداً عن فرعون.

وأحداث القصة تؤكد أنّ بين شعب إسرائيل والتوحيد بون شاسع.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨]

إذ بمجرّد خروجهم من مصر وعند أول قرية يمرّون بها، وبعد أن رأوا من الله الواحد الأحد الآيات الكبرى رأوا قوماً يعبدون أصناماً فطلبوا من رسول الله موسى أن يجعل لهم إلهاً خاصاً بهم يرونه، وهذا لا يمكن أن يأتي في أفكارهم وقلوبهم من فراغ أو محض المصادفة فلابدّ أن يكونوا قد تشرّبوا الشرك ونشؤوا عليه، ولابدّ أن يكونوا قد بعدوا تماماً حتى انقطعت الصلة بينهم وبين دين التوحيد الذي كان عليه جدهم إبراهيم، وأبوهم يعقوب.

ولم يمض على هذا الحدث الذي بكّتهم عليه موسى ووسمهم بالجهل زمن طويل حتّى صنعوا من حليهم (عجلاً) ليعبدوه، وأوحى لهم السامريّ الذي صنع العجل أن هذا هو الإله الذي أرسل موسى إليهم، وأنه هو الذي نجاهم من فرعون. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ۞ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا ۞ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَانُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۞ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٨٨-٩١].

ولما عاد موسى إليهم حرق العجل ونسفه وألقاه في البحر وطرد السّامريّ من بينهم طلبوا منه مرة أخرى أن يروا الله جهرة ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

فهذه الأحداث لا ينبغي فصلها عن وحدة الموضوع ولا من الشكل العام لصورة بني إسرائيل لأنها جزء هام جداً في حياتهم في مصر، وتوضح معالم عقائدهم، حيث لا يعقل أن يكونوا موحدين قبل إرسال موسى ثم يأتون من بعده ليطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً، ثم يصرّون على الاعتكاف على عبادة العجل، وبعدها بقليل يطلبون منه رؤية الله سبحانه وتعالى جهرة.

وبذلك يتّضح أن الصراع الفرعوني الإسرائيلي ليس بسبب اختلاف عقيدتهما، فالاثنان مشركان لا شكّ في ذلك. وإنما انحصر سبب الصراع بين الطرفين في خوف فرعون منهم على كرسيه وملكه وإثارة الشغب والفوضى بين الشعب المصري، وأكرر التنبيه على أن هذا الصراع يجب فصله عن صراع موسى وفرعون بعد النبوّة كما سنبيّنه بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

ثانياً: الصراع بين موسى وفرعون

إن صراع فرعون مع موسى يختلف عن صراع فرعون مع بني إسرائيل، وصراع موسى مع فرعون اختلف في أسلوبه وطبيعته، وأسبابه باختلاف المراحل التي مرّ بها موسى، أي مرحلة ما قبل النبوة، ومرحلة ما بعد النبوّة. فمرحلة ما قبل النبوّة كان الصراع فيها حول أمور عنصرية بحتة لا تتعلق بدين أو عقيدة كما هو الظاهر من الخطاب القرآني، وأما ما بعده فقد انطبعت بالطابع الديني، والخلاف العقائدي، وأخذت شكلاً

جديداً تماماً، ومن هنا تحول صراع فرعون مع بني إسرائيل بقيادة موسى بعد نبوته من صراع عنصري إلى صراع ديني.

وبعبارة أخرى أدق. أخذ الصراع بين موسى وفرعون شكلاً دينياً وانصبغ بصبغة العقيدة بعد نبوّة موسى وإن كان قد انضوى الخلاف العنصري داخل هذا الإطار الديني، وهذا الأسلوب استخدمته اليهود عبر مسيرة تاريخها حتى اليوم فقد رأينا أن أنجح الوسائل في إثارة العواطف في الخلافات الناشئة بينهم وبين غيرهم هو أنهم يلبسون هذا الخلاف بلباس الدين ويصبغونه بصبغته، فسرقة أرض فلسطين واغتصابها من أهلها هو لب وأصل الخلاف بين العرب والمسلمين وبين اليهود. ولكنهم يصبغون هذا الخلاف بصبغة الدين بقصد إثارة العواطف.

على كلّ حال فقد ذكر القرآن الكريم قصة نجاة موسى عليه السلام أثناء ولادته بالإيحاء إلى أمّه أن تضعه في التابوت ثم تقذفه في اليم، ثم ذكر كيف التقطه آل فرعون، وكيف ألقى الله محبّته في قلب امرأة فرعون فطلبت منه الإبقاء عليه ليقوما بتربيته.

ولكي يعيده الله إلى أحضان أمه حرّم عليه المراضع حتّى دلتهم أخته التي كانت تراقب التابوت على أمه. إلى هذا الحدّ سكت القرآن عن متابعة قصته في قصر فرعون، لكنّ المستفاد من الآيات أنه قد عاش وتربّى وترعرع في قصر فرعون، وهذا يستفاد من قول فرعون: (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين...) وإنه من المؤكّد لو كان في قصّة موسى في قصر فرعون

ما يثير الإهتمام لذكره القرآن، ولكنّ القرآن سكت تماماً عن ذلك مما يدلّ على أنه لا يوجد في حياته في القصر ما يُهتمّ به.

ثم أعاد الله ذكر موسى بعد مرحلة طويلة من عمره حينما دخل المدينة عل حين غفلة من أهلها، فوجد أحد الإسرائيليين يتشاجر مع مصريّ، فقتل المصريَّ بوكزة وكزها إياه، وفي اليوم الثاني شرع في قتل مصري آخر، ولكنه بعد أن جاء إليه من يحذره ويخبره أن فرعون يتعقبه ليقتله بالمصري الذي قتله فرّ من مصر.

استمرّ موسى في فراره عشر سنوات عاشها في مدينة (مدين) وفي الطريق أثناء عودته إلى مصر نزلت عليه الرسالة في طور سيناء كما هو معلوم.

فعاد إلى مصر يحمل رسالة سماوية تتضمن الأمر بالتصدّي لفرعون ومن هذه اللحظة تحول الصراع بينه وبن فرعون إلى صراع ديني، إذاً فالصراع بين موسى وفرعون قبل النبوّة يبدأ من وقت دخوله المدينة على حين غفلة من أهلها إلى يوم فراره من مصر.

وصراعه مع فرعون بعد النبوّة بدأ من يوم دخوله مصر بعد عودته من الفرار إلى اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون.

صراع موسى مع فرعون قبل النبوة:

لم يسجّل القرآن أي صراع بين موسى وفرعون قبل النبوّة سوى تلك الحادثة التي قتل فيها موسى المصري وفرّ على أثرها خوفاً من فرعون وتوجه إلى مدين.

بدأت القصّة عندما دخل المدينة سرّاً: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ۝ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ۝ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۝ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ١٥-٢١]. هذه هي قصة الصراع الموسوي الفرعوني قبل النبوة كما ذكرها القرآن الكريم.

دخول موسى المدينة على هذا النحو من السرية والتنكر أمر لم يذكر القرآن أسبابه ولا الغاية منه.

كذلك لم يذكر من أين دخل موسى المدينة، هل جاء من قصر فرعون أو من مكان آخر؟ وهل دخلها سرّاً مخافة من فرعون أم من الناس؟

فإن كان دخوله سرّاً خوفاً من فرعون فلابدّ أن يكون قد ارتكب فعلاً يستوجب غضب فرعون عليه، وهذا الشيء لم يذكره فرعون نفسه

عندما كان يعدد فضائله على موسى، ويذكر ما ارتكبه.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[الشعراء: ١٨-١٩] فلو كان موسى فعل شيئاً غير القتل الذي أشار إليه فرعون في قوله: (وفعلت فعلتك التي فعلت) لذكرها فرعون في عداد ما فعله، كذلك لم يخبر الله سبحانه وتعالى عن شيء غيرها.

نعم! إن دخول موسى المدينة سرّاً يوحي بشيء سري يدور في المدينة بينه وبين قومه، بدليل التقسيم في الآية ﴿هذا من شيعته وهذا من عدوّه﴾ والتقسيم المذكور يوحي بل يدلّ على أن لموسى شيعة وأتباع يدبّرون شيئاً ما، إلاّ أن هذا الشيء لم يرق بعد إلى مستوى ملاحقة فرعون، حتّى أنّه لم يرق إلى حدّ ذكر الله سبحانه وتعالى له، حيث لو كان هذا الشيء السري هاماً لذكره الله أولاً نكشف أمره لفرعون بعد قتل المصري.

إذاً فدخول موسى المدينة سراً لا يؤثّر في قصة الصراع، ومن ثمّ لا يوجد صراع بين موسى وفرعون سوى ملاحقة فرعون له بسبب ارتكابه عملية القتل في اليوم الأول وشروعه في القتل في اليوم الثاني.

وهذه الملاحقة ليست صراعاً، وإنما هي إجراء طبيعي يقوم به كلّ الحكام في مواجهة مثل هذا السلوك.

بل أستطيع الجزم بأن هذا ليس صراعاً بين موسى وفرعون بالمعنى المعروف، بل نستطيع أن نسمّيها ملاحقة قضائية. أي أن القضاء هو الذي

كان يلاحق موسى وليس فرعون.

فموسى مهما كان قد قتل نفساً، وفي اليوم الثاني شرع في قتل شخص آخر لولا مجيء من حذره وأخبره بملاحقة فرعون له لقتله بالفعل.

مسوغات قتل موسى للمصري:

عند البحث عن مسوغات ما فعله موسى بحيث يكون القرآن الكريم هو وحده محلّ البحث عن تلك المسوغات، وبعيداً عن جوّ هيمنة الإسرائيليات في تفسير الحادثة نجد أن القرآن الكريم يذكر تلك المسوغات بوضوح **﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي هو من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه﴾** عندما ندقق النظر والتأمّل في قوله: (من عدوه) نجد أن الرجل المقتول ليس بذاته عدواً لموسى، بمعنى أنه ليس بينه وبين موسى عداء شخصي، وإنما الأمر لا يزيد عن كونه من شعب أو عنصر عدو لشعب بني إسرائيل، والقرآن لم يذكر هل الرجل كان من القبط (قوم فرعون) أم من عرق آخر يعيش في مصر؟ فقد ذكرنا أن قوله تعالى: **﴿وجعل أهلها شيعاً﴾** يقطع بوجود عناصر وأعراق كثيرة في مصر وبنو إسرائيل شعب مبغوض ومطرود من قلوب كلّ الشعوب والأعراق. إلاّ أن في القرآن إشارة يمكن الاستفادة منها بأن المقتول كان مصرياً وهي قول موسى: (وقتلت منهم نفساً) مع اعترافي بأنها قرينة بعيدة إلى حد ما عن المشار إليه.

وعلى أية حال فعملية القتل ليس لها مسوغاً سوى إرادة الانتصار لمن هو من شيعته على من هو من عدوه، وهذا المبرر في الحقيقة غير مقبول عرفاً ولا شرعاً، لذلك أدرك موسى بحسه الفطري أن هذا العمل الذي قام به لا يليق بمثله ولا يصحّ أن يرتكبه، فبمجرّد أن علم أنّ وكزته قضت على الرجل ﴿... قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ بمعنى أن هذا العمل ليس من أعمال المنصفين فمهما كان هذا من شيعته، وهذا من عدوّه لا يصّح ارتكاب القتل لأن مجرد العداء ليس مسوغاً للقتل، وكذلك ليس مجرد الولاء مسوغاً للنصرة، وهذا عين ما نبّه عليه رسولنا الأعظم محمّد صلّى الله عليه وسلّم (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقالوا: عرفنا كيف ننصره مظلوماً ولكن كيف ننصره ظالماً؟ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: أن تأخذوا الحق منه).

والغريب الذي لا أجد مبرراً له هو محاولة تكرار هذه الفعلة في اليوم الثاني (فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنّك لغوي مبين فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما...) فبعد أن أقرّ في اليوم الأول أنّ ما فعله لا يرضي الله، وأنّه من فعل الشيطان، وبعد أن أقرّ في اليوم الثاني قبل الشروع في تكرار القتل قال لمن هو من شيعته إنّك لغوي مبين، ورغم ذلك كلّه (أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما).

والقرآن الكريم يبين بكلّ وضوح مظلومية الذي هو من عدوهما في ذكر قوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى

﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

بمعنى يا موسى كفاك دماً، فأعمالك ليست أعمال مصلح بل هي نفس أعمال فرعون، فإن كان قتل منكم أشخاصاً لا لشيء سوى أنّكم أعداؤه فأنت أيضاً تقتل لا لشيء سوى أننا من أعدائك وهذا ليس إصلاحاً، وإذا كان فرعون جباراً فأنت تريد أن تكون جباراً مثله، والمنصف عندما يسمع قول هذا الرجل يهتزّ من الأعماق، ويدرك أن شعب مصر لم يكن راضياً عن أفعال وممارسات فرعون وكان ينتظر من يصلح حالهم بغضّ النظر من أي طائفة هو أو من أي عرق كان.

ولا أدري أهذا القول الذي تهتزّ منه الجبال هو الذي ردع موسى عن القتل أم خوفه من فرعون عندما جاءه رجل من أقصى المدينة يحذره من فرعون ويخبره أنه يتتبعه ثم نصحه بالخروج من المدينة **﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** [القصص: ٢٠-٢١].

الأيادي اليهودية في توجيه الأحداث.

حاول بعض المفسرين توجيه الأحداث، قالوا: إنّ قول موسى عليه السلام (إنّك لغويّ مبين) موجه للمصري الذي هو عدو لهما وليس للإسرائيلي الذي هو من شيعته، وما ذلك إلاّ لإعطاء الحقّ لموسى

والإسرائيلي، وتشويه صورة عدوهما، حتّى لو خالف ذلك النص القرآني.

ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك عن النصّ. فقال: إنّ قول: (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) إنّما هو من مقول الإسرائيلي الذي هو من شيعة موسى وليس من قول المصري الذي هو من عدو لهما... وأنّ المصري لما سمع ذلك انطلق إلى فرعون وأخبره أنّ موسى هو الذي قتل بالأمس فأمر فرعون بقتل موسى، بمعنى أنّ موسى في اليوم الثاني أراد أن يقتل الإسرائيلي المشاغب فقال له: (أتريد أن تقتلني...).

وهذا الكلام في غاية الغرابة والبعد عن السياق واللفظ القرآني فالخلاف صريح بين التفسير والنصّ، وأحيل القراء إلى إعادة النظر والتأمّل في السياق في سرد القصة ليقف بنفسه على ضحالة هذا الاستنتاج ومخالفته للنص ليشعر بنفسه التعمد في مخالفة الخطاب القرآني لصالح جهة دون جهة.

وحتى الذين لم يجدوا بدّاً من الالتزام بالنصّ ذهبوا إلى أن سبب قول موسى للإسرائيلي (إنّك لغوي مبين) فسروا الغواية: بالخطأ في التخطيط في مواجهة فرعون وليست الغواية الدينية أو السلوكية، فالمصري كافر يستحقّ القتل ولكنّ التوقيت كان خطأً، قول في غاية الغرابة أيضاً وليس له مصدر سوى الخيال والوهم.

فليس كلّ كافر يستحق القتل ولا كلّ مصري مرهون بممارسة فرعون.

وإذا كان المصري يستحقّ القتل وأنّ ما فعله موسى وصاحبه عملاً

نضالياً ومشروعاً فلماذا تاب منه؟ ولماذا اعترف أنّ ما ارتكبه من أعمال الشيطان، ثم تاب عنه واستغفر الله منه وبدى الندم وأنّه ظلم نفسه، وأنّه أعان مجرماً من مجرمي بني إسرائيل.

فعندما وقف موسى أمام فرعون بعد النبوّة ليحاوره قال له فرعون: (وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) أجابه موسى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]. فموسى عليه السلام يقرّ بأنّ ما فعله خطأ وما كان ينبغي له أن يفعله، والقرآن الكريم يقرّ أيضاً بهذا الخطأ، ورغم ذلك يصرّ من يصرّ على التأكيد أن موسى كان مصيباً فيما فعله، وأنّ المصري كان كافراً يستحقّ القتل. فالتاريخ إن قال قولاً يصح أن نحلله ونستنبط منه، ولكنه إن سكت لا يصح أن نلحق به أحداثاً لم يذكرها.

وعلى أية حال فعداء فرعون لموسى قبل النبوّة لم يكن عداءً من أجل الدين، وإنّما هو عداء بسبب قتل موسى لأحد رعايا فرعون لذلك فرّ موسى خارج البلاد، وحيث إنّ دافع القتل كان بسبب نصرة الذي هو من شيعته فهو داخل ضمن الصراع العنصري بين طائفة فرعون وطائفة بني إسرائيل.

قد يكون في قولي أو بحثي هذا بعض ما يستنكره القارئ عليّ، لما يمكن أن يتوهم أنّني في جانب فرعون ضدّ موسى عليه السلام ـ حاشا لله ـ وإنما هي مجريات البحث وأساليبه التي تفرض عليّ مثل هذا الأسلوب الذي لا أجد مفراً منه أو بديلاً عنه.

صراع موسى مع فرعون بعد النبوّة:

نزلت الرسالة على موسى حين خروجه من مدينة (مدين) وعودته إلى مصر بعد مرور عشر سنوات، والظاهر أن هذه المدة كانت هي المدة القانونية أو الشرعية – على حسب قانون وشريعة مصر – لإسقاط جرائم القتل غير المتعمد عند الفراعنة، لأنّ فرعون عندما واجه موسى ذكّره فقط بفعلته ولم يطلب قتله بسببها.

الشيء الآخر عندما طلب فرعون قتل موسى لم يذكر هذه الفعلة ولم يتعلل بها ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

حيث لو كان في شريعة فرعون قتله بمن قتله سابقاً لذكره فرعون لأنه كان أقرب في قبول طلبه، ولما قال الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فلم يعارضه أحد ممن كانوا في مجلس فرعون ولم يحتجوا عليه بأنه يستحق القتل بسبب فعلته التي فعلها، وهذا يدل على أن فعلته قد سقطت بالتقادم. صحيح! إنّ هذا القول الذي ذهبتُ إليه ليس هناك ما يقطع به إلاّ أنه قول استنتجته من مجمل الأحداث، وللقارئ أن يقبله أو يردّه.

وأما قول موسى عليه السلام عندما قال لله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ

رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص. ٣٣] فقد كان الخوف من أن يتعلل فرعون بهذه العلة ويقتله، فيكون القتل حينئذ أمام الناس ليس بسبب الرسالة وإنما بسبب قتله المصري، مع علم موسى بأنّ المدة التي قضاها في (مدين) كافية لرفع العقوبة عنه، ولو لم يكن عالما بذلك لما اصطحب ماله وأهله وعاد إلى مصر.

ومن ثم يكون الصراع الموسوي الفرعوني قد تحوّل تماماً من صراع عنصري إلى صراع ديني، فلما أراد فرعون أن يذكّر موسى بقول (وفعلت فعلتك التي فعلت) قال له موسى: (فعلتها إذاً وأنا من الضالين) بمعنى أنّ هذه الفترة – فترة ما قبل النبوّة – انتهت وانقضت وما حدث منه فيها لا يعاتب عليه لانقضاء مدته، وتغير الحال بعد نزول الرسالة.

وكانت بداية الرسالة ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات:١٧].

﴿وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف. ١٠٤].

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧].

عندما نقرأ هذه الآيات سريعة الإيقاع، ذات الألفاظ الجزلة القوية، وهي الآيات الأولى في تبليغ الرسالة الموسوية ببعديها العقائدي والتشريعي، نشعر بأنّ المسألة ليست محصورة في إبلاغ رسالة فحسب، بل نشعر ببداية انقلاب وعصيان مدني، وثورة تهدف إلى قلب الموازين الاجتماعية والعقائدية والسياسية في مصر. فقوله: (إنّي رسول من ربّ العالمين) وقوله: (أرسل معنا

بني إسرائيل ولا تعذّبهم) وقوله: (إنّه طغى) جمل قصيرة سريعة إلاّ أنها تشير إلى حدوث زلزال أو انفجار بركان على الأصعدة الثلاثة.

فموسى الذي خرج من مصر بثوب الفرار جاء بعد عشر سنوات مرتدياً ثوب الرسالة السماوية ليقود أكبر تمرد وعصيان مدني وديني في عصر الفراعنة.

إذاً فالحدث عظيم وليس سهلاً أو هيّناً وإن كانت الجمل المشيرة إليه قصيرة وسريعة، لذلك لابدّ من وقفة تأملية في مرحلة الصراع الجديدة، وهي فترة صراع موسى مع فرعون بعد النّبوّة ونزول الرسالة السماوية عليه.

عناصر الرسالة

ولكي ينال البحث في هذا الحدث أعلى درجة من الصحة يلزم النظر بشيء من الإمعان في عناصر الرسالة الموسوية. وحيث إنّ عناصر أي رسالة كانت تنحصر في:

١- الرسالة.

٢- الرسول.

٣- المرسل إليه.

يلزم النظر في تلك العناصر.

العنصر الأول: الرسالة الموسوية.

تتسم الرسالة الموسوية كما في القرآن الكريم بوجهين:

الأول: وجه خاص. وهو ما يتعلق بشعب إسرائيل.

الثاني: وجه عام وهو ما يتعلق بالعقائد.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧].

فإنّ قوله: (إنّا رسول ربّك) هو الجانب العام المتعلق بالألوهية وما يتعلق بها من عقيدة. وقوله: (فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذّبهم) هو الجانب الخاص المتعلق بشعب إسرائيل.

أولاً: الوجه الخاص في الرسالة الموسوية.

الوجه الأول من الرسالة الموسوية هو الوجه الخاص ببني إسرائيل. **﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ...﴾** [طه: ٤٧].

وهذه المسألة من وجهة نظر فرعون حالة من التمرد والعصيان المدني، ومن وجهة نظر موسى عمل لابدّ منه لتحرير قومه وتخليصهم من ظلم فرعون، وهذا أيضاً صراع جديد لا يقل أهمية وخطورة عن الصراع الفكري والديني السابق، فالمسألة ليست مسألة صراع أفكار فقط بل تعدتها إلى صراع شعوب، ومواجهة حقيقة بين قوميتين: قومية فرعون الذي علا في الأرض وتمكّن وسيطر، وبين قومية موسى وشعب إسرائيل

المستضعف الذليل المهان من قِبَل فرعون وجنوده، ولـولا أن اللـه سـبحانه وتعالى هو الذي أرسل موسـى ليـأمر فرعـون بإرسـال بنـي إسـرائيل معـه والكفّ عن تعذيبهم لقلنا: إن القضية قضية قومية بحتـة، ولكـن نظـراً لأن الله سبحانه وتعالى هو الباعث لموسى فلابدّ أن تكون المسألة قد خرجـت عن دائرة القومية إلى إطلاق أوسع يشمل الوصفية الإنسانية.

فالقضية إذاً قضيـة ظـالم ومظلـوم، مهمـا كـان الظـالم ومهمـا كـان المظلوم، قضية طاغية ومضطهد، قضية حق وباطل وليست قضيـة مصـري وإسرائيلي، أو فرعون وموسى، فالقضية إذاً ليست مخصوصة بأفراد بعينهم بل هي قضية متعلقة بموضوع عام.

وقد استغل بنو إسرائيل هذه المسالة استغلالاً عنصرياً يخـالف الحقيقـة والواقع، ويخالف رسالة موسى عليه السلام.

ثانياً: الوجه العام للرسالة.

الوجه العام لرسالة موسى عليـه السـلام هـو مـا يتعلـق منهـا بمسـائل العقيدة الدينية، وأهمّ ما ركّزت عليه هي مسألة صحة الاعتقاد بالألوهية، ومسألة الحساب بعد البعث.

هاتان المسألتان هما أهمّ محاور الصراع العقائدي بـين رسـالة موسـى عليه السلام وفرعـون، إلاّ أنّ المسـألة الأولى وهـي تصحيـح العقيـدة أهـمّ المسألتين لأنها تتعلق بفرعـون مباشـرة، وأمـا المسـألة الثانيـة وهـي مسـألة الحساب بعد البعث فهي مسألة يمكن أن تكون محلّ بين الطرفين.

المسألة الأولى: حقيقة الألوهية.

هذه هي أول وكزة لموسى في صميم العقيدة الفرعونية، وهي الصرخة المدوّية التي زلزلت عرش فرعون. (يا فرعون إنّي رسول ربّ العالمين). بمعنى يا فرعون أنت لست ربّاً ولست إلهاً، وإنّما الإله والربّ الحقيقي هو ربّ العالمين أو على قول آخر: ليس إله فرعون هو الإله الصحيح الذي يستحق العبادة، وإنما الإله الحق هو الله رب العالمين، وهذه أيضاً لا تقلّ في خطورتها عن رفض ألوهية فرعون.

وهذه الكلمة من شأنها كما ذكرت أن تزلزل الكرسي تحت فرعون، لأنّ عقيدة فرعون والفراعنة من قبله تعمل على ترسيخ ديانة فرعون في أذهان الناس لما تحمله تلك العقيدة في تثبيت ملك الفراعنة، وهنا تكمن خطورة العقيدة الموسوية على عقيدة فرعون والقبط، وهنا نقطة التقابل بالرأس بين العقيدتين.

لهذه الأهمية تركزت الحوارات بينهما، فتارة تأخذ دور الحوار الحر والمناقشة العقلانية، وتارة تشتدّ حتّى تصل إلى حدّ التهديد بالقتل. ففرعون قال ورسخّ مقولته: بأنه الربّ الأعلى (أنّا ربّكم الأعلى)، وموسى يعارض وبشدّة ويقول: لا، بل الربّ الأعلى هو ربّ العالمين وليس أنت.

وبأسلوب هادئ يدور حوار بينهما حول هذه المسالة فعندما قال موسى: (يا فرعون إنّي رسول ربّ العالمين) سأله فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَامُوسَى﴾[طه: ٤٩]. فأجاب: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ

﴿هَدَى﴾ [طه: ٥٠]. فوجّه فرعون خطابه لمن حوله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] وتحويل الخطاب من الشخص المعني بالحوار إلى غيره يوحي بالفرار من المناقشة أو يوحي بالاستشهاد بهم على صحة دعواه وبطلان دعوى خصمه، ولكنّ ذلك مهما كان لا يفيد في إبطال صحة الاعتقاد بالله سبحانه وتعالى، وأسلوب الهروب أو التحريض لا يحق حقاً ولا يبطل باطلاً.

ونحن نلاحظ أنّ الحوار لم يدر حول مسألة توحيد الإله، وهذا يوحي بأنه لا يوجد خلاف بين الطرفين في توحيد الإله، ولكن الاختلاف حول من هو الإله؟ أهو فرعون كما يدعي أو على الأقل الإله الذي يؤمن به؟ أم هو ربّ العالمين ربّ موسى وهارون؟

وفرعون في أعماق نفسه وعمق ضميره يؤمن أنه ليس هو الإله ولا يصحّ أن يكون، وليس هو وحده الذي يعلم ويؤمن بهذه الحقيقة فكلّ من حوله ومن يعرفه يؤمن بها، ولكنها المصالح التي تدعوهم إلى إعلان ألوهية فرعون. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وغالباً ما يكون مثل هؤلاء في حالة من عدم التوازن أو التركيز، وذلك لحالة الازدواجية التي يعيشونها، فكلّ شخص فيهم تارة يكون في حالة ما بينه وبين نفسه، وتارة أخرى يكون في حالة ما بينه وبين من

حوله، وهذه الحالة تؤدي بدورها إلى الانهيار السريع أمام الأدلة والبراهين فيلجأ حينئذ إلى التهديد والوعيد.

ونشاهد هذه الحالة بجميع أبعادها وزواياها في الحوار التالي بينهما: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء. ٢٣-٢٤] فيخرج فرعون عن أصل البحث ويوجه خطابه إلى من حوله بقصد الفرار من الحوار والخروج عن الموضوعية في أسلوب تحريض لمن حوله وكسب عواطفهم ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء. ٢٥] ولكن موسى لم يأبه باستفزاز فرعون للناس واستمرّ في تعريف ربّ العالمين ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

هنا بدأ فرعون في الترنح والخروج بالكامل عن الموضوعية إلى الطعن والتجريح في موسى هروباً من الحوار ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] ومع ذلك استمرّ موسى أيضاً في تعريفه لله متناسياً الإهانة غير آبه بها. ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء. ٢٨].

هنا وصل فرعون عند الحدّ الذي يجب أن يوقف فيه سيل الأدلة بالقوة مخافة أن يستيقظ ضميره أو أن يستيقظ ضمير الملأ حوله فقال: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] تهديد صريح ووصول الأمر منتهاه، ونلاحظ في قول فرعون هذا خشية من تفاقم الأمر وتحويل الحوار إلى حالة تمرّد وعصيان عام إذا ما انكشف أمر ألوهية فرعون

وهذا واضح من قول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ونستطيع القول: إن هزيمة فرعون كانت محققة في مسألة بطلان آلهته وأحقية إله موسى عليه السلام، والحقيقة أن مسألة إثبات وحدانية الله تبارك وتعالى مسألة ظاهرة قد لا تحتاج أحياناً إلى كثير من العناء في إثباتها لمثل فرعون، ولكن المشكلة هنا تكمن في عدم قدرة المخاطِب على البيان، وقدرة المخاطَب على المراوغة وسلاطة اللسان، ولهذا اكتسب الحوار الموسوي الفرعوني أهمية خاصة في تبليغ الرسالة.

المسألة الثانية: الإيمان بالثواب والعقاب.

أما المسألة التانية فهي مسالة الحساب - الثواب والعقاب - فقد كانت موضع جدل بينهما إلاّ أنّها لم تأخذ شكلاً حاداً كالمسألة الأولى.

فالفراعنة والمصريون القدماء عموماً لا شكّ أنّ عقيدتهم كانت مبنية على الإيمان بالبعث بعد الموت بدليل آثارهم الموجودة حتّى يومنا هذا.

ولكنّ البعث الذي كانوا يؤمنون به كان بعثاً مجرّداً عن الرجوع إلى الله وعن الحساب الذي يتبعه جنة أو نار، أي أنّ من كان في الدنيا ملكاً يبعث في الخلود ملكاً كما كان، ومن كان وزيراً بعث كما هو، والفقير والغني، والسيد، و الخادم كلّ يبعث على ما كان عليه في الحياة الدنيا، وقد أثبتت آثارهم الباقية إلى الآن هذه العقيدة.

وأما البعث الذي بينته رسالة موسى عليه السلام هو البعث الذي يرجع

الناس فيه إلى الله ليتم الحساب الذي يتبعه عذاب للظالمين، ونعيم للمؤمنين.

والصراع حول هذه المسالة لم يأخذ حيزاً كبيراً في ساحة الصراع الموسوي الفرعوني، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن عقيدة فرعون وقومه في قوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

وهذا لا يعني عدم إيمانهم بالبعث وإنّما لا يؤمنون بحقيقة البعث الذي هو الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ليحاسبهم، هذا بالنسبة لعقيدة فرعون، وأمّا عقيدة موسى عليه السلام فقد بيّنها الله في أوّل نزول الرسالة: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ۞ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٤-١٥].

وقد استخدم موسى عليه السلام هذه العقيدة أحسن استخدام في مواجهته لخصمه، فنلاحظ قوله في مواجهة فرعون: (وقد أُوحي إلينا أن العذاب على من كذّب وتولى) وهذا معناه أن فرعون لن يبعث ملكاً كما هو الثابت في عقيدته، وإنما يبعث عبداً مثل غيره من الرعية ليحاسبه الله على عمله في الدنيا ويعذبه على تكذيبه لموسى، ومن ثمّ استخدمها في سياق التهديد وليس في سياق الحوار الهادف إلى تصحيح عقيدة فرعون في مسألة الحساب كما هو واضح، لأن مسالة الحساب بعد البعث مسألة بديهية لا تحتاج إلى إثبات، خاصة إذا كان الخصم مؤمناً بأصل البعث بعد الموت، وفرعون كما ذكرت كان مؤمناً بالبعث ولكنه لم يكن مؤمناً

بالحساب، وعدم إيمان الفراعنة بالحساب ناتج عن الهوى في نفوسهم الذي يدعوهم لنفي هذه العقيدة، لأنها تسبب لهم الأرق وعدم الاستقرار النفسي بسبب ممارساتهم وسلوكهم في الحكم، فهم يريدون أن يفعلوا ما يشاؤون بلا رقيب أو حسيب، لذلك نجد موسى لم يناقش فرعون في هذه المسألة وإنما استخدمها في التهديد والوعيد فقط.

موقف الشعبين من عقيدة موسى

بعد أن بينا أهم ما يتعلق بالصراع العقائدي بين موسى وفرعون بعد الرسالة لابدّ من ذكر موقف كلّ من الشعب المصري والشعب الإسرائيلي من هذه العقيدة الصحيحة التي أوحى بها الله إلى موسى **﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ۝ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾** [طه: ١٤-١٥] تضمنت الآيتان الشريفتان عناصر العقيدة الموسوية التوحيد، وجوب العبادة، الميعاد، الحساب، وهذه العقيدة مسألة عامة في الرسالة الموسوية كما ذكرنا، وليست خاصة بشعب إسرائيل، لأنّ الله الخالق يستوي عنده جميع خلقه لذلك يلزمهم توحيده والإيمان بالبعث، والحساب.

فهل كفر كلّ المصريين تبعاً لفرعون؟ وهل آمن كلّ بني إسرائيل تبعاً لموسى؟ للإجابة على ذلك نعقد مقارنة بين موقف كلا الشعبين من العقيدة الموسوية الصحيحة على ضوء من الذكر الحكيم.

لا شكّ أنّ الشعوب غالباً ما تكون تابعة لحكوماتها خاصة إذا كانت سياسة الحكام الحديد والنار، وسياسة الدجل والتجهيل، ولكنه إذا جاء من ينير العقول، ويقذف المعرفة الصحيحة في القلوب فإنه لا مفرّ من إيمان القلوب الطيبة بهذه العقيدة والتمسك بها أشدّ التمسك، وأما القلوب القاسية التي وصفها الله بأنّها كالحجارة أو أشدّ قسوة فإنّها تؤمن بهذه العقيدة بالقدر الذي يتفق مع مصالحها الخاصة وأهوائها.

والقرآن الكريم يخبر عن حالات كثيرة تثبت انتشار العقيدة الصحيحة في الشعب المصري حتى أنها وصلت إلى بلاط فرعون نفسه بل إلى أقرب الناس إليه، فقد دخل الإيمان في قلب زوجته: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

فزوجة فرعون مصرية آمنت بالعقيدة الصحيحة بغضّ النظر عمن هو الذي جاء بها ومن أي عنصر هو.

وسجلّ القرآن قصة المؤمن من آل فرعون في موقفه البطولي المشهود في سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾

ونحيل القارئ الكريم إلى القصة التي بدأت من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الخامسة والأربعين من سورة غافر ليقف على موقف رجل تحول إلى داعية وواعظ ومرشد بمجرد أن رأى الصراع بين الحق والباطل قد وصل إلى

الحد الذي يحرم فيه كتم الإيمان، وهو رجل مصري من آل فرعون كما صرّح القرآن الكريم، وسجل القرآن كذلك موقف السحرة الذين جاء بهم فرعون وجمعهم من القرى والمدن المنتشرة في مصر: ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦-٣٧] فهم من صميم وجدان الشعب المصري عندما جاء بهم فرعون لمباراة موسى ومناظرته كانوا في غاية التمسك بألوهية فرعون أو بآلهته لدرجة أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم تباركوا بفرعون واسمه ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء. ٤٤] وبمجرد أن بان لهم الحق وغلبت براهين موسى على براهينهم آمنوا بالرسالة وصدّقوا بها. ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه ٧٠] هذه نماذج وحالات من المؤمنين بالتوحيد والبعث والحساب من الشعب المصري.

وأما إذا نظرنا إلى شعب إسرائيل نجد حالات كثيرة سجلها القرآن تؤكد أن هؤلاء القساة الغلاظ لم يؤمنوا بعقيدة موسى أو البعث والحساب، وإنما كان إيمانهم به كمخلّص لهم من فرعون.

فمثلاً: قارون الإسرائيلي واحد من أقرب المقربين إلى فرعون لم يؤمن برسالة موسى ولا برسالته. ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ بل يصرح القرآن بأن من آمن بموسى من قومه عدد قليل: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ

قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

بمعنى فما آمن من قوم موسى إلاّ ذريّة منهم، والاستثناء في الجملة يدلّ على أنّ المستثنى أقلّ من المستثنى منه.

ولو خلعنا نظارة كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما ممن وضعوا في تفسير آيات بني إسرائيل ما يروق لهم وما ينصب في مصلحتهم لأدركنا أن هذه المسألة تتضمّن أمرين في غاية الأهميّة:

أولهما: عدم التمييز بين مؤمن مصري وإسرائيلي.

إنّ فرعون لم يميز في مواجهته للعقيدة الموسوية بين مصري وإسرائيلي، فإن قول زوجته في دعائها **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**[التحريم: ١١] يدلّ على أنها كانت تلاقي في سبيل إيمانها صنوف الإيذاء بسبب إيمانها وهي زوجته التي تعتبر أقرب الناس إليه، والمؤمن الذي لولا وقاية الله له لتعرض لأشدّ أنواع العذاب لولا أن لجأ إلى الله وفوض أمره إليه، والسحرة الذين صلبهم في جذوع النخل وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

فالمصريون كانوا أشدّ بلاءً من بني إسرائيل. **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾**[غافر: ٢٥].

بمعنى لما جاء موسى بالحق من عند الله قال فرعون ومن معه بما فيهم قارون الإسرائيلي اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه. بغض النظر عن عنصر أو عرق هذا المؤمن.

وقد نبه المفسرون بأن هذا القتل هو غير القتل الأول الذي سبق رسالة موسى.

فالقتل الأول لا شكّ أنه كان محصوراً في أبناء بني إسرائيل مخافة من الطفل الذي ذكره العرافون لفرعون، وذكرنا فيما قبل ذلك أن دوافعه هي خوف فرعون على كرسيه وملكه من الضياع.

وأما القتل الثاني الذي أشارت إليه الآية التي معنا الآن فقد كان دافعه الإيمان بقوله: (فلما جاءهم موسى بالحق) وبقوله: (أبناء الذين آمنوا) فالقتل الأول في بني إسرائيل بدافع الحفاظ على الكرسي. والقتل الثاني عام لكلّ من يتصف بالإيمان مع موسى ودافعه الإيمان.

وحَمْل هذا القتل على عنصر بني إسرائيل دون سواهم وَهْمٌ وعدم إدراك للخطاب القرآني، وظلم للمؤمنين من غيرهم.

وإذا تأمّلنا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ..﴾ [الأعراف: ١٢٧].

نجد في هذه الآية أنهم لّما جمعوا موسى وقومه نسبوا إليهم الفساد في الأرض فقالوا: (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض) ولكنهم لما ذكروا ما يتعلق بعقيدة التوحيد أفردوا موسى فقط دون قومه فقالوا: (ويذرك وآلهتك)

ولم يقولوا: ويذروك. وهذا مما يجعلنا نشكّ في ترك بني إسرائيل عبادة فرعون وآلهته أو على الأقل نشكك في تركهم الوثنية والالتزام بالتوحيد. وسوف يأتي في طيات البحث ما يدعم هذا القول إن شاء الله تعالى.

ثانيهما: وهو قوّة إيمان المصريين برسالة موسى

إذا قارنا بين موقف المصريين السحرة الذين آمنوا بربّ موسى وهارون وبين إيمان من آمن به من شعب إسرائيل لوقفنا خاشعين مطأطئي الرؤوس أمام موقف المصريين، ولنظرنا بإستخفاف إلى بني إسرائيل.

فبعد أن آمن السحرة بموسى قال لهم فرعون: **﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾** [طه: ٧١].

إن هذا التهديد وحده يكفي لكي تطير منه القلوب فزعاً ورعباً خاصة إذا كان صادراً من مثل فرعون الذي علا في الأرض، والذي إن قال فعل وقدر على فعله. وإنّ هذا التهديد وحده أشدّ من الموت نفسه.

ورغم هذا قالوا بكلّ ثبات وقوة وتحدٍ: **﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾** [طه: ٧٢-٧٣] إنّني سأدع مجالاً لخيال القارئ ليقف مندهشاً أمام هذا النوع من الرجال، ويصل بنفسه إلى ما قد وصل إليه هؤلاء الرجال من عزة النفس والإباء وقوة الإيمان لننظر إليهم كما

ينظر أهل الأرض إلى أهل السماء.

ثم ننتقل إلى موقع المؤمنين من بني إسرائيل وهزال موقفهم وانحطاط نفوسهم، في قولهم لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

إنني على يقين تام أنه متى خرجنا من السجن الاختياري الذي فرضه علينا الذين كلما أرادوا تفسير آية من آيات بني إسرائيل لجؤوا إلى اليهود وكتبهم وحاصرونا بأقوالهم.

متى ما خرجنا وقفنا على كنوز القرآن الكريم في هذا الباب الواسع ووقفنا على أهم الحقائق في أهم قصة من القصص القرآنية.

فشتان بين شعب بنى حضارات عريقة وبين شعب عاش تاريخه متطفلاً على تلك الحضارات، فالمصريون آمنوا بالحق والحقيقة ولم يلتفتوا من الذي جاء بها ومن أي عنصر هو، لأن المسألة لا تتعلق بحامل الحق وإنما المسألة هي مسألة الحق نفسه.

وهناك فارق كبير بين إيمان المصريين وإيمان من آمن بموسى من شعب إسرائيل. فالمؤمنون المصريون آمنوا بالتوحيد لأنه حقيقة، الإيمان بها يجب أن يكون مجرداً عن كلّ شيء فالتصديق بالحقيقة لأنها حقيقة وحسب، وهذا ما فعله المصريون فقد آمن المصريون بالله ورسوله (موسى) والبعث والحساب، وخلعوا عبادة فرعون، وكفروا بعقيدته،

لا طمعاً في وعد من موسى ولا خوفاً من وعيد فرعون لأنها الحقيقة المطلقة وهذه هي طبيعة الأحرار الأباة.

أما بنو إسرائيل فقد كانوا على غير ذلك، فما كان إيمانهم بموسى إلاّ لوعود وأماني وعدهم إياها. والمتدبر في الآيات الكريمة التي تناولت قصتهم مع موسى يدرك تلك الحقيقة. فشعب إسرائيل لم يتّبع موسى لكونه رسول الله، ولم يكن إيماناً بتوحيد أو بغيره، بل كانت تبعيتهم له تبعية قومية وسياسية بحتة، وذلك من اليوم الأول الذي بُعث فيه إلى يومنا هذا.

وإذا تأملنا الحوار الموسوي الإسرائيلي كما ورد في القرآن الكريم لتأكدنا من ذلك ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

فبنو إسرائيل ليس لهم مصلحة في عقيدة التوحيد ولا هم يريدون من موسى ديناً ولا من الله رسولاً، ولا توراة، ولا زبوراً وكل ما يريدونه منه هو تحقيق مصالحهم المادية، وتحقيق طموحاتهم في الملك، وتحقيق رغباتهم في السيطرة على الأرض، فطلب موسى منهم الاستعانة بالله والصبر ليس من أجل الآخرة، أو حياة دينية نقية.. إطلاقاً، وإنما من أجل وراثة الأرض والاستخلاف فيها. فإيمان المصريين بموسى آنذاك لكونه جاء بالحق ولأنه رسول من الله حقاً.

وأما إيمان بني إسرائيل فمن باب الإيمان ببطل قومي يريد أن يحقق لهم ما يطمعون فيه من امتلاك الأرض والسيطرة على الناس، وأما مسالة التوحيد فغير واردة في أذهانهم بالمرة، فبمجرد اجتيازهم البحر ونجاتهم من فرعون واستقرارهم بعض الشيء عبدوا عجلاً له خوار صنعه لهم شيطان من شياطينهم.

والحقيقة أنني لا أدري أكانت عبادتهم للعجل لكونه عجلاً أم لكونه ذهباً فهم قوم يسيل لعابهم عند رؤية الذهب. فهم لا يستطيعون عبادة حلياً فكان لا بد لهم أن يصيغوها على شكل صنم يعبدونه.

العنصر الثاني: الرسول (موسى)

الرسول هو العنصر الثاني من عناصر الرسالة الثلاثة، وحجم الرسالة وأهمية المرسل إليه وخطره من أهم عوامل اختيار الرسول.

وحيث إنّ الرسالة الموسوية ذات وجهين: الأول عقائدي عام، والثاني خاص بإخراج شعب إسرائيل من مصر.

وحيث إنّ المرسل إليه فرعون وشعب مصر أصحاب الحضارة العريقة فلابدّ أن يكون أمر المواجهة ليس بالسهل الهين، لا من جهة المجادلة العلمية في الأمور العقائدية ولا من الجهة السياسية لإخراج بني إسرائيل.

لذلك يتطلب الأمر أن يحمل هذه الرسالة رسولان اثنان وليس رسولاً واحداً، فرسالة كهذه تحتاج إلى رسول قادر على البيان، وقادر على الصبر

وتحمل المشاق، وقادر على مواجهة فرعون الذي علا في الأرض، قادر على مواجهة شعب فيه كل مقومات الجدل والعلم، فمثل هذه الرسالة تستلزم رسولاً مرناً، يضع لكل حادث حديثه، والمرونة بدورها تتطلب سعة الصدر وطول البال والتأني والابتعاد عن العجلة.

وقد كان موسى عليه السلام بطبيعته في حاجة إلى من يعينه على إكمال هذه القدرات، فهو يعلم جوانب الضعف في نفسه، لذلك أرسل الله سبحانه وتعالى معه أخاه هارون رسولاً مساعداً له ليحمل معه أعباء الرسالة استجابة لدعائه كما أخبر القرآن الكريم.

قال تبارك وتعالى لموسى في أول أمر له: **﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾** [طه. ٢٤].

وكان هذا الأمر مفاجئاً لموسى الذي هرب من فرعون مخافة أن يقتله، والذي يعرف حق المعرفة من هو فرعون، لذلك أجاب على الفور وفي حالة من الاندهاش والفزع **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۞ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾** هذا الكلام الموسوي يتضمن بكلّ صراحة ووضوح أهم جوانب ضعف القدرة في مواجهة فرعون وقومه، لذلك نراه قد طلب العون من الله سبحانه وتعالى بمدّه وإسناده بأخيه هارون الذي كان يتمتع بما لم يحظ به موسى عليه السلام، وهذا القول الموسوي يتضمن عدّة أمور أهمها:

أولاً: حادث القتل الذي فعله موسى وتسبب في فراره من مصر قد كان له أثر كبير في إعاقة إيصال الدعوة إلى فرعون بشكل كامل، لأن هذه الحادثة تُحْدِثُ في نفسية فرعون وفي شعور المصريين حساسية خاصة تجاه موسى، وإن لم يؤاخذه فرعون عليه إلاّ أنه يبقى نقطة تُحسب على موسى.

ثانياً: حالة عدم القدرة على البيان، وهي الحالة التي دعا موسى ربه أن يخلصه منها في دعائه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

لا شكّ أن ما ورد في كتب التراث أن سبب عجز موسى عن البيان هو أنه قد أكل جمرة من النار في صغره حرقت لسانه، أقوال غير مبنية على أساس من التوثيق، ولا على أساس علمي صحيح، وإنما هي تخرصات وأقوال لا صحة لها وكذلك قولهم: بأن موسى كان لا يجيد اللغة القبطية (لغة فرعون) حيث إنه كان يتكلم العبرية (لغة قومه) لذلك إذا أراد التحدث بالقبطية يكون في حديثه لَكْنة وتلعثم يمنعانه من الإفصاح عما يريد قوله، هذا الكلام أيضا لا صحة له لأن موسى عليه السلام قد نشأ وترعرع منذ المهد في بيت فرعون.

ثم إن بني إسرائيل وإن كانوا يتكلمون العبرية لغتهم الأصلية، إلاّ أن إقامتهم في مصر أجيالاً بعد أجيال لابدّ وأن يتكلموا اللغة المصرية بفصاحة كأهلها سواء بسواء.

ولو كان ذلك صحيحاً كما قالوا لكان (هارون) هو الأولى بهذه اللّكنة والتلعثم حيث إنه قد نشأ بين قومه ولم يدخل قصر فرعون كأخيه

موسى، في حين أن موسى يقول: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص. ٣٤].

ولكن الذي يمكن استنباطه من الآيات الشريفة هو أن عدم فصاحته غالباً ما تكون ناتجة عن عوامل نفسية وليست عضوية أو جهالة منه بلغة المصريين، فقد نشأ وترعرع بينهم، ولكن طبيعته وسرعة غضبه أغلب الظن هي العامل الأساسي في عدم انطلاق لسانه بالبيان والفصاحة.

فسرعة الغضب دائماً ما يتولد عنهما عدم التركيز في اختيار الألفاظ والتراكيب المناسبة، خاصة إذا كانت تلك المناقشة في المسألة التي تتعلق بأمور غيبية يصعب الإستدلال عليها بالبراهين العقلية أو المنطقية كالتي جاء بها موسى، فهو رسول من ربّ العالمين وقد أرسله بأن يخرج بني إسرائيل من مصر، وهذا القول يصعب على موسى إثباته بالأدلة والبراهين العقلية البحتة، لهذا كانت بيِّنات موسى في هذه المسألة هي المعجزات التي أمدّه الله بها، كتحوّل العصا إلى حية وغيرها.

فإذا كذّبه فرعون وأنكر تلك المعجزات كما حدث، فالنتيجة الحتمية لموسى عله السلام أن يكون الغضب والعصبية هما البديل عن الحوار، وهذا بدوره ينعكس سلباً على بيانه وفصاحته.

فالآيات القرآنية تبين الطبيعة الخشنة وسرعة الغضب عند موسى عليه السلام. وإن كانت الخشونة أو الغضب في الله تبارك وتعالى فموسى صنيع الله، لا يغضب إلاّ له، ولا يقسو إلاّ فيه.

فقتله المصري وشروعه في قتل الثاني دون تمهل دليل على ذلك؟

وكذلك غضبه على أخيه هارون وأخذه بلحيته ورأسه كما ذكرت الآيات الشريفة التي تخبر عن هذا الحدث ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وفي موضع آخر من القرآن قال هارون لموسى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

وقال تبارك وتعالى يخبر عن حالة العجلة في سيدنا موسى (ع): ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى﴾ [طه: ٨٣]. نعم إن قول موسى «وعجلت إليك رب لترضى» – وحبذا العجلة إلى الله – لكنها تبقى عجلة.

فهذه الأخبار القرآنية الشريفة تصرّح بطبيعة موسى وحالته النفسية التي كان يتعامل بها.

صحيح! إنّ الغضب كان من أجل الله والحق ولكنه لا يعني أنّ ذلك ليس بغضب، فالغضب حالة نفسية تؤدي إلى ثوران النفس بغض النظر عن أسبابها، وهذه الحالة تفقد الإنسان سيطرته على نفسه وسلوكه، لذلك رأيناه ألقى الألواح التي فيها هدى من الله، ثم أخذ برأس أخيه يجره إليه ولم يرقب قوله.

وهذه حالة يعرفها موسى في نفسه لذلك دعا ربه ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ

لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥-٢٦].

ولعلم الله بطبيعة موسى عليه السلام أوصاه عند لقائه بفرعون بضبط النفس في قوله تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

وهذه الحالة تفقد المحاور سيطرته على الألفاظ الخارجة منه مما يؤدي إلى اضطراب الأدلة والبراهين فيفقدها جدواها وقوتها حتى لو كانت تلك البراهين صحيحة، ويجعلها غير واضحة الدلالة على المعنى المراد بيانه.

وكذلك تؤدي إلى إحداث ثغرات يسهل للمحاور الخصم الدخول من خلالها لتفنيد الآراء، فإننا نشاهد كثيراً من أصحاب الحقوق يعجزون عن نيل حقوقهم بسبب عدم قدرتهم على بيان هذا الحقّ، والعكس صحيح فكثير من أصحاب الباطل والجور قادرون بقوة بيانهم ودهائهم على قلب الحقائق، فيجعلون باطلهم حقاً، وحقّ خصومهم باطلاً.

وأغلب الظن أن هذه الطبيعة هي التي كانت تسبب حالة ضيق الصدر التي تؤدي بدورها إلى التلعثم في الحوار، وعدم انطلاق اللسان، ويقوي هذا الاحتمال الذي ذهبتُ إليه قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي ۞ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٢-١٣].

بمعنى إني أخاف أن يكذبوني فيكون نتيجة ذلك أن يضيق صدري فيؤدي إلى عدم انطلاق لساني بالبيان، لذلك أرسل معي أخي هارون.

هذه الطبيعة الموسوية جعلت الله سبحانه وتعالى يستجيب لدعاء

موسى بأن يجعل أخاه هارون معه في تحمل الرسالة وأدائها، فبعد أن قال: **﴿اذهب إلى فرعون﴾** قال: **﴿اذهبا إلى فرعون﴾** وفي موضع آخر **﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾** [طه: ٤٢].

ومن الضروري أن ألفت نظر القارئ في بحثي حول شخصية موسى عليه السلام، إنني لا أقصد إطلاقاً بيان عيوب أو نواقص رسول عظيم مثل سيدنا موسى سلام الله عليه، وإنما أحاول من خلال القرآن الكريم أن أحلّل الأوضاع والشخصيات في قصة الصراع الإسرائيلي المصري. للوصول إلى صورة حية أضعها أمام القارئ وأرسمها في مخيلته لعلّه يصل إلى ما لم أستطع الوصول إليه من حقائق غائبة، غيّبها البعد الزمني الهائل بيننا وبين زمن وقوع القصة. بالإضافة إلى الأيادي والأهواء اليهودية العابثة في حقائق التاريخ.

وإذا دقّق القارئ في أسلوب هذا البحث دون غيره يجد أنني أحاول قدر إمكاني استعمال ألفاظ هادئة لطيفة تتناسب مع الحديث عن شخصية سيدنا موسى سلام الله عليه حتى ولو لم تتناسب مع العبارة أو الأسلوب.

بحث في مسألة أولي العزم

نظراً لكون سيّدنا موسى عليه السلام من المعدودين من الرسل أولي العزم يستوجب علينا النظر والبحث في هذه المسألة.

من الشائع أن الرسل أولي العزم محصورون في خمسة رسل فقط، هم على التوالي التاريخي: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وهذا يعني أن هناك رسلاً أولي عزم ورسلاً ليس لهم عزم، أو غير أولي عزم.

في الواقع لا أرى لحصر أولي العزم في خمسة رسل أساساً من الصحة، ولكنه قول اشتهر بين الناس واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ...﴾ [الأحقاف: ٣٥] واعتبروا أن معنى (من الرسل) تبعيض أي أن بعض الرسل أولو العزم وليس كلهم، ثم قاسوا ذلك على أصحاب الرسالات العامة الشاملة.

فإن كان الرسل أصحاب العزم هم الرسل أصحاب الرسالات العامة، فإن موسى عليه السلام يخرج منهم قطعاً فقد أثبتنا أن رسالته ليست رسالة عامة بل هي مقصورة على التشريع لبني إسرائيل، وقد فصلنا القول في ذلك، ولكن ما أراه في مسألة أولي العزم على غير ذلك تماماً.

ولكي نصل إلى حقيقة الأمر في مسألة أولي العزم لابدّ من بحث في

معنى (العزم) في اللغة، ومعناه في الآية الشريفة، وكذلك البحث في معنى حرف الجرّ (من) هل هي للتبعيض؟ فتكون بمعنى بعض الرسل، أم هي للتبيين؟ فتكون بمعنى (جنس الرسل).

معنى العزم:

إنّ معنى لفظ (العزم) في اللغة هو عقد القلب على إمضاء أمر ما نزعت النفس لفعله، وبعبارة أخرى: هو تأكيد عقد النية على تحقيق شيء مراد ومقصود مع بذل الهمة في تحقيق هذا الشيء كما في قوله تعالى: ﴿... فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

بمعنى إذا عقدت النية وأكدتها على فعل شيء قصدته فابدأ بالعمل على تحققه.

ومن ثم فأصحاب العزم هم أصحاب الهمم والنوايا الثابتة الراسخة في تحقيق أهدافهم التي عقدوا النيّة عليها مهما كلّفهم من تعب ومشقة في سبيل ذلك. وهذه الصفة يشترك فيها كلّ الرسل الذين كُلفوا بأداء رسالات إلى قومهم سواء أكانت الرسالات خاصة أم عامة. فهي صفات لا يختص بها رسول دون آخر، لأنها صفات من لوازم الرسل، وتحمّل الرسالات. والرسول الذي لا يتصف بهذا المعنى يكون غير مؤهل أصلاً لحمل رسالة فضلاً عن تكليفه بأدائها.

والعزم من المعاني المتفاوتة في القوة والضعف، فهو يزداد وينقص في قلب الشخص الواحد، فتارة يشتد عزم الشخص على أداء شيء، وتارة أخرى يفتر أو يضعف نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] فقد ضعف عزم آدم عليه السلام في

طاعة اللـه والابتعـاد عـن الشـجرة التـي نهـاه اللـه أن يقربهـا واسـتجاب لوسوسة الشيطان فأكل منها، ولكنه لما تلقى كلمات من ربه ازداد عزمـه في طاعة الله ومخالفة الشيطان.

فقد يكون عزم شخص ما في مسألة معيّنة ضعيفاً ثـم يقـوى بعوامـل ومؤثرات خارجية، والعكس أيضاً صحيح، فقد يكون عـزم إنسـان علـى فعل شيء ما ضعيفاً ثمّ يقوى عزمه على فعله.

كذلك يتفاوت العزم من رسـول إلى رسـول آخـر، فعـزم إبراهيـم عليـه السلام أقوى منه عند موسى، وعـزم موسـى أقـوى مـن عـزم لـوط أو هـود، والعزم عند رسول الله محمد صلوات الله عليه أقوى منهم جميعاً... وهكذا.

وقوة العزم عند الرسول تقاس بقوة الرسالة وحجمها، وشأن المرسل إليه. أي أنّ عوامل قوّة العزم عندهم تتوقف علـى حجـم الرسـالة وشـأن المُرسَل إليه، فكلما اتسعت الرسالة وعظم شـأن المُرسَـل إليـه كلمـا ازداد العزم، وكلما ضاقت مساحة الرسالة وقلّ شأن المُرسَل إليه كان العـزم في الرسول المكلف بها أقلّ.

فمواجهة فرعون وقومه الذين علـوا في الأرض ليـس كمواجهـة قـوم هـود، أو قـوم صـالح أو أمثالهمـا. وحجـم الرسـالة المحمديـة وشـمولها وقوتها، ومواجهة العرب والعجم والعالم أجمع بما فيهم آلاف من الفراعنة وليس فرعون واحداً، كل تلك الخصائص تجعل مـن عـزم محمـد صلـوات الله عليه أعلى وأقوى من عزم الجبال ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۞ إِنَّ

نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل. ٥-٦] لهذا كان عزمه أشد وأقوى من عزم غيره من الرسل الكرام صلوات الله عليهم أجمعين.

وهذا المعنى من العزم هو الذي يتفق مع السياق القرآني في الآية الشريفة التي بدأت بحثّ الرسول على الصبر والتحمل في أداء الرسالة، ومواجهة الجهل المتفشي في العرب، ومواجهة أصحاب الديانات الأخرى، فتأسيس رسالة خالدة شاملة كاملة مهيمنة على غيرها من الأديان تحتاج إلى رسول يتمتّع بقوّة هائلة وقدر عظيم من العزم والهمّة.

وينبغي في البحث حول أولي العزم في الآية الشريفة البحث عن معنى حرف الجر (من) في قوله: (من الرسل) حيث لو كانت بمعنى التبعيض فيكون المعنى كما ذكرنا بعض الرسل وليس كلهم أولي عزم.

فإنّ حرف الجرّ (من) يأتي على أوجه متعددة عدها ابن هشام النحوي في (مغني اللبيب) إلى خمسة عشر وجهاً. ولكن حرف (من) في الآية واقع بين التبعيض والتبيين.

توضيح ذلك:

(من) إذا كان الغرض منها التبعيض تكون علامتها أن تسدّ مسدّ كلمة بعض، أي إننا إذا رفعنا الحرف (من) ووضعنا كلمة (بعض) أدت المعنى المقصود دون زيادة أو نقصان في المعنى، نحو قوله تعالى: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم...﴾** [التوبة: ١٠٣]. بمعنى خذ بعض أموالهم صدقة، وليس معناه خذ أموالهم صدقة. وأما (من) البيانية فإنها تأتي لغرض بيان

الجنس، لذلك يأتي الاسم المجرور بعدها إما نكرة، أو محلى بألف ولام الجنس نحو قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ...﴾ [البقرة ١٠٦] بمعنى ما ننسخ جنس آية أو ننسها، لأنه ليس من المعقول نسخ بعض آية، لأن الآية لا تتجزأ، فـ (من) هنا لغرض بيان جنس المنسوخ.

ونحو قوله تعالى: ﴿...يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف ٣١] بمعنى يحلون فيها بأساور جنسها الذهب ويلبسون ثياباً جنسها سندس وإستبرق. فحرف الجرّ في الآية التي معنا (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) (من) البيانية وقد جاء الاسم المجرور بعدها محلّى بأل الدالة على الجنس ولا يعقل أن تكون بقصد التبعيض، حيث لو كانت كذلك لكان المعنى: اصبر كما صبر بعض الرسل وهو خلاف واقع الرسل فإن صفة العزم ملازمة لكلّ الرسل وليست مقصورة على رسول دون رسول. وإنما المعنى: اصبر كما صبر أصحاب العزم وحيث إنّ الرسل هم أكثر الناس عزماً جاءت من لتبيّن جنس أصحاب العزم وهم الرسل. كل الرسل دون استثناء.

وثمرة البحث في هذه المسألة هو أن سيدنا موسى عليه السلام ليس من خواص الرسل، وإنما هو ككلّ الرسل أصحاب الرسالات الخاصة مثل هود، ولوط، وصالح، وشعيب، وغيرهم، ولم يرق إلى درجة نبينا محمد صلوات الله عليه وآله. في شمولية رسالته وعمومها وديمومتها.

هل قتل اليهود موسى؟

فرض هذا السؤال نفسه عليّ حين إطلاعي على كتاب (موسى والتوحيد) لـ (سيغموند فرويد) فقد أثار انتباهي ما نقله عن الباحث (سيلنى) في كتابه (موسى وأهميته في تاريخ الدين الإسرائيلي، اليهودي) أنه وجد في سفر النبي (هوشع) النصف الثاني من القرن الثامن الآثار الأكيدة لموروث ينص على أن مؤسس الدين (موسى) لقي نهاية مفجعة أثناء تمرد قام به شعبه العنيد المشاكس، كما أن الدين الذي أسسه تمّ هجره والنكوص عنه في الحقبة نفسها... انتهى.

لما قرأت ذلك أثار في نفسي هذا السؤال: هل يستبعد قيام بني إسرائيل بقتل موسى؟ فأعدت النظر في قصتهم مع موسى كما ورد في القرآن الكريم لعلّي أجد ما يرشدني إلى نفي تلك المقولة أو أجد ما يؤكدها، وإن كنتُ أجد بداخلي ما يؤكد هذه المقولة أو على الأقلّ يقبلها، حيث لا يوجد ما ينفيها.

وأقصد بقولي لا أجد ما ينفيها أي ما ينفيها من القرآن الكريم، حيث إن هناك مقولة تقول: بأن الرسل لا تقتل، وهذه المقولة كغيرها من المقولات المبنية على التخرص والوهم والجدل العقلي، فقد بنى أصحاب هذه المقولة قولهم هذا قياساً على قوله تعالى: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ ثمّ عمموها

على كل الرسل في حين أنها خاصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلمّ، وحمل المسائل الخاصة أو ذات الخصوصية على العام بعيد عن الحقيقة والواقع إن لم يكن باطلاً عقلاً وعرفاً، ومن ثَمّ فإنّني أغضّ النظر عن هذه المقولة وأكتفي بالتأمل والنظر في الخطاب القرآني.

فبعد تأمل وجدت أن القرآن قد سكت عن ذكر موسى بعد امتناع قومه عن الامتثال لأوامره في دخول القرية التي أمرهم الدخول إليها فسخروا منه وقالوا: (اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) ثم قولهم: (إنا لن ندخلها أبداً...) هذا القول بمثابة إعلان حالة من التمرد والعصيان على موسى وأخيه هارون، ثم نجد قول موسى عليه السلام جراء هذا العناد الشديد له من قِبَل شعبه الذي بذل كل ما يملك من جهد وإمكانات لتخليصه من فرعون ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

وهذا القول ينم عن حالة من اليأس والإحتباط الشديد انتابت موسى من قومه. ويوحي بل يدلّ دلالة لا شكّ فيها بوجود حالة من التوتر في العلاقة بين موسى عليه السلام وشعبه، بل قوله: (فافرق...) يوحي بأن العلاقة بينه وبين شعبه أخذت شكل المقاطعة والمخاصمة. وهذه الحالة تقوي من احتمال القول بقتل موسى عليه السلام.

وهناك مسألة أخرى لا تقلّ دلالتها في تقوية هذا الاحتمال وهو ما وقع منهم اتجاه (هارون) عندما حاول صدّهم عن عبادة عجل السامري،

فقد حاول بنو إسرائيل اغتيال هارون وهو واضح من قوله: (كادوا يقتلونني) فخشيته من القتل لا يمكن أن تكون ناتجة عن توهم منه بل لابد أن يكون قد تعرض بالفعل للتهديد بالقتل فآثر انتظار موسى حتى يعود من ميقات ربه.

هذه الجملة التي قالها هارون عليه السلام مع قصرها لا يجب أن نتوقف عند ألفاظها ونمرّ عليها مرور الكرام، بل يجب أن نمدّ أعيننا إلى ما تشير إليه هذه الجملة، ونتأمّل مدلولاتها والأحداث التي تشير إليها، فهي تشير إلى أحداث خطيرة وقعت داخل المجتمع الإسرائيلي في أثناء غياب موسى عنه وذهابه إلى ميقات ربّه، فقد حدث تآمر سرّي لاغتيال هارون، وتشير كذلك إلى حالة تمرّد وقيام ثورة كبيرة لتغيير الأوضاع الدينية والسياسية في شعب إسرائيل.

فقد حدثت الثورة أو التمرد بالفعل، بصناعة العجل ودعوة السامريّ وأتباعه إلى عبادته، فلا شكّ أنه قد حدثت محاولة لاغتيال هارون بصفته النائب لموسى على شعبه، وهذا في حد ذاته محاولة للانقلاب لا شكّ فيه.

ولنا أن نتصوّر شعباً تائهاً في البرية في حالة التمرد والثورة على قيادته وعلى معتقداته الجديدة، وهذا التصوّر يرشدنا إلى ضرورة النظر إلى ما يشير إليه الخبر القرآني، وليس إلى ألفاظ الجملة فحسب.

بل أن كلمة (كادوا) وهو فعل وضع للدلالة على المقاربة يشير إلى وجود مؤامرة قد حيكت فعلاً وكادت أن تنفذ.

وإضافة إلى هذا وذاك ثمة إيحاء آخر وهو أن موسى عليه السلام لما نسف عجل السامري وألقاه في البحر وطرد السامري، ليس من المتصور عقلاً، أن يكون قد استطاع تطهير شعب إسرائيل من الخط والتيار السامري الذي تغلغل فكره في نفوس بني إسرائيل، وانتشر أصحابه في الشعب، فلا محالة من سريان عبادة العجل والإيمان بدين السامري في عروق وأفكار الكثير من الشعب، وقد أكدّ القرآن الكريم هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿**وأُشرِبُوا في قُلُوبِهم العجلَ بكفرهم**﴾[البقرة. ٩٣]. ولاشك أن هؤلاء قادرون على إثارة القلاقل والفتن وبثّ الإشاعات استغلالاً لفرصة ينقضون فيها على موسى وأخيه.

ويزيد هذا الاحتمال أيضاً شدّة حالة التذمر والتوتر التي كانت تسود شعب بني إسرائيل بعد خروجه من مصر، فبعد خروجهم من مصر أصبحوا طرداء تائهين في برية سيناء، وهذه الحالة من التوتر لا شك أنهم أَلْقَوْا تبعيتها على (موسى وأخيه) فإن قولهم قبل ذلك: (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) يؤكد مقولة تمرد الشعب على موسى وقتله ويزيد في نسبة هذا الاحتمال، ويرفع من درجة التصديق به معرفتنا بطبيعة بني إسرائيل المتقلبة، فالذين لم يستطيعوا الصبر على طعام واحد (المنّ والسلوى) كيف نتصورهم يصبرون على حالة الضياع والتشرّد الذي سببه لهم موسى كما يعتقدون، كلّ ذلك يؤكد ولا يدع مجالاً للشك أنه قد أُحيكت مؤامرات ومكائد للنيل من موسى وأخيه، وتؤكد وجود

حالة من تأزم في العلاقات الاجتماعية بين شعب إسرائيل والتي تنعكس بالتأكيد على علاقة الشعب بقيادته الدينية والسياسية المتمثلة في موسى وأخيه هارون.

ثم إن سكوت القرآن عن المصير الذي وصل إليه موسى يزيد في قوة احتمال قتله.

وأما إذا قال قائل: لو أن موسى عليه السلام قد قُتل على يد بني إسرائيل لذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن ولم يهمله لعظم هذا الفعل وفداحته.

نقول: إن القرآن لم يسكت عن المسألة سكوتاً مطلقاً، بل إن في وصف القرآن لبني إسرائيل بأنهم قتلة الأنبياء وعدم توضيح من هم هؤلاء الأنبياء الذين قُتلوا لا يمتنع أن يكون موسى عليه السلام من هؤلاء الذين نالت منهم أيادي بني إسرائيل.

ومن هنا نصل إلى قناعة أو على الأقل قوة الاحتمال بصحة ما ورد في سفر (هوشع) بأن بني إسرائيل قد تآمروا على موسى واغتالوه وبدلوا دينه بدين آخر يخدمهم ويكون في رعاية مصالحهم، أي أنهم بدل أن يصنعوا إلهاً يعبدونه هم كما فعل غيرهم خلقوا هم إلهاً هو الذي يعبدهم وينزل عليهم شريعة عنصرية تخدم مصالحهم وتكون وفق أهوائهم.

وعلى كل حال فإن هذا البحث ذكرته كجملة اعتراضية بقصد الإشارة إليها لعلّ باحثاً يهتم بهذه المسألة فيؤكدها أوينفيها. وإن كنتُ في نفسي على قناعة تامة بحدوثها.

العنصر الثالث: المرسل إليه (فرعون)

المرسل إليه الرئيسي لرسالة موسى هو فرعون، وهو الطرف الأساسي في قصة الصراع مع موسى. فمن هو (فرعون) الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في أربعة وسبعين موضعاً؟ نظراً لأن هذا التكرار الهائل يوحي بخطورته، وأن أمره ليس بالأمر الهيّن، لذلك لابدّ من البحث الدقيق في رسم صورة لملامح هذا الرجل على ضوء ما ورد في القرآن الكريم.

إن كلمة فرعون في اللغة المصرية القديمة تعني الملك المتصرف أو الربّ الذي له حق الأمر والنهي في شعبه أو من هم تحت سلطته.

وإذا أردنا أن نحلل شخصية أي إنسان مهما كان، فإن وسيلتنا إلى ذلك هي النظر إلى ممارسات تلك الشخصية وسلوكها ومواقفها تجاه الأحداث، وربطها ببعضها بعضاً لنعرف مدى توافقها مع بعضها، وكذلك نحلل الأقوال الصادرة عنها لنعرف مدى قيمتها، وموافقتها أو مخالفتها لسلوكه.

ومن خلال ذلك نستطيع رسم صورة واضحة المعالم إلى حد ما للشخصية التي نريد معرفتها. صحيح إن من الصعوبة بمكان رسم صورة كاملة لمثل شخصية فرعون الذي يبعد عنا آلاف السنين، ولكنه من خلال القدر المتوفر لدينا عنه نستطيع رسم شيء ما عن ملامح شخصيته.

فبالنظر إلى سلوك وأقوال فرعون وربطها بمواقفه تجاه الأحداث يمكن من خلال ذلك الوصول إلى تحليل صحيح لشخصيته.

وحيث إن فرعون يعني رأس الهرم في حكومة مصر آنذاك فلا يعنينا حينئذ تحليل شخصيته من الناحية النفسية المتعلقة بما يخصه كشخص إلاّ إذا كان ذلك على سبيل العَرَض، أو إذا كانت لها علاقة بشخصيته العامة والذي يعنينا في شخصية فرعون هو تحليل شخصيته كحاكم مصر في زمن موسى باعتباره المتصدي والمعارض لرسالته، لذلك كان من أهم ما يهمنا في شخصية فرعون الأمور التالية:

١- قدراته. ٢- سياسته في الحكم. ٣- عقيدته.

١- قدرات فرعون

إن أهم ما يلزم استنباطه من قدرات فرعون تلك التي تتعلق بمسألة الصراع بينه وبين بني إسرائيل وموسى. هي قدراته العسكرية، وقدراته الحضارية، والفكرية لأن هذه القدرات هي نقاط التّماس بين طرفي النزاع.

أولاً: القدرات العسكرية.

إن قوله تبارك وتعالى: **﴿إن فرعون علا في الأرض...﴾** وقوله: **﴿إن فرعون لعال في الأرض...﴾** وقوله: **﴿استكبر هو وجنوده في الأرض...﴾** وقوله تعالى حكاية عنه: **﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾** يدلّ دلالة صريحة ومباشرة عن حالة التفوق

العسكري والسياسي لفرعون خاصة وللحكومة المصرية عامة.

وقد ذكرت قبل ذلك معنى العلو في الأرض وأنه يعني التسلط وبسط السلطة على مصر وما حولها من ممالك وحواضر، ونستفيد منها هنا لبيان حالة العلو التي كان يتمتع بها هو وحكومته.

فقد كان ملكاً على منطقة واسعة من الأرض، وله الغلبة والسلطان على أهلها، وهذا الأمر لا يحدث إلاّ إذا كان يتمتع بقدرة عسكرية هائلة تؤهله للسيطرة والتوسع في بسط سلطته على الشعوب المحيطة بمصر وقد امتدت سلطته من مصر إلى بلاد النوبة حتى بلاد الأحباش جنوباً، وإلى بلاد الشام والرافدَيْن شرقاً، وهذه المنطقة الهائلة تضمّ طوائف وشعوباً مختلفة الهوية ومتباينة العقيدة في كثير من الحالات، والسيطرة على مثل هذه المنطقة تتطلب قدرات عسكرية وسياسية عالية، وقد دلّت الآثار على قدرات هائلة كانت تمتلكها مصر في زمن فرعون المعني بالصراع مع موسى[1].وقد سبق ذكر مثل هذه القدرات قبل ذلك فلا حاجة لإعادتها هنا.

ثانياً: القدرات الفكرية.

إن الحوارات التي دارت بين فرعون وموسى تبيّن قدرات فرعون هذا على الحوار وأنه كان في غاية الدهاء، وسعة الحيلة.

فمثلاً: عندما نلاحظ خطابه مع موسى في مسألة إثبات التوحيد، وأن الله هو ربّ العالمين وليس هو فرعون أو إله فرعون.

---

[1] يراجع كتاب تاريخ مصر لـ (بريستيد)، وكتاب الحياة أيام الفراعنة لـ (جيميز).

في إحدى الحوارات حول هذه المسألة قال فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى ۝ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۝ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٤٩-٥١].

سأله في أول الحوار عن ربهما، ومن ثَمّ فالموضوع الأساسي في الحوار يدور حول الرب الذي آمن به موسى، ولكن فرعون بدهائه عرف نتيجة استمرار موسى في عرض الأدلة على صحة المعتقد الذي جاء به، لذلك نرى فرعون قد خشي من إمكانية تأثير الأدلة على الحاضرين في مجلسه، فحوّل مسار الخطاب إلى مسألة في غاية الخطورة والحساسية وهي الحديث عن القرون الأولى، والقرون الأولى تعني آباء وأجداد الحاضرين، وقد كانوا يعبدون الفراعنة في أيامهم، أو أنهم على الأقل يعبدون آلهة غير إله موسى، سواء كانت أصناماً أو إلهاً يفرضه عليهم فرعون، فإن أجاب موسى عن حقيقة حالهم كما أراد فرعون، وقال: إنهم في النار. أو على ضلال أو مثل هذا القول لسقط لا شكّ في مأزق حرج قد لا يستطيع الخروج منه بسهولة، ويكون فرعون قد أصاب هدفين في وقت واحد.

الهدف الأول: هو خروج الحوار من أصل الموضوع.

الهدف الثاني: هو توريط موسى في السقوط في شتم أو سب الآباء والأجداد، وهذه المسألة في غاية الحساسية عند الشعوب العنصرية، فقد جبل الناس على التسامح فيما يسيء إليها، ولكنها لا تقبل السماع إلى ما يسيء إلى الآباء والأجداد، خاصة إذا كان هؤلاء الناس من المتعصبين العنصريين، ولكن

موسى فوت عليه هدفه فأجاب عليه إجابة عامة: **﴿قال علمها عند ربي لا يضلّ ربي ولا ينسى﴾** ثم واصل حديثه في الموضوع الأساسي في الحوار.

وهذه المراوغة من فرعون تنمّ عن دهاء وخبرة عالية في الحوار، فهو قادر على إثارة الحاضرين على موسى، وهذه القدرة ناتجة عن شدة معرفته بالأحوال النفسية للشعب الذي يحكمه، ويعرف جوانب الضعف التي يمكن من خلالها الدخول في صميم نفسيته.

* * *

وفي موضوع آخر يتبين دهاء فرعون، وهو التأكيد وتركيز الدعاية عبر وسائل إعلامه على تشويه معجزات موسى مثل معجزة العصا التي انقلبت حية، والمعجزات الأخرى على أنها نوع من السحر وليس شيئاً آخر غيره، فإن جمع فرعون السحرة لمباراة موسى أمام الناس يوم الزينة (يوم عيدهم) ويوم يحشر الناس ضحاً، أي في وضح النهار ليس عفوياً ولا جاء بلا تفكر بل عن دهاء نادر، لأن مباراة موسى للسحرة مهما كانت النتيجة لصالحه أو لصالحهم فإن ذلك يؤكد للناس أن ما جاء به موسى من سنخ ما يمارسه السحرة، وهذا بدوره شيء غير جديد على المصريين، فكثير ما تحدث المباريات بين السحرة بعضهم بعضاً فيفوز ساحر على ساحر آخر، ولكن فوز أحدهم لا يعني أن ما جاء به ليس سحراً، كذلك لو فاز موسى فإن ما جاء به لا يخرج عن كونه سحراً، وهذا ما أراد فرعون أن يثبّته في أذهان الرأي العام في مصر.

لذلك كان من السهل على فرعون أن يتهم السحرة بعد هزيمتهم بأنه كبيرهم الذي علمهم السحر، وإن كان هو الذي حشرهم وجاء بهم من المدائن قال: (وإنّه لكبيركم الذي علّمكم السحر).

ولكن الذي أزعج فرعون وأفشل مخططه في تلك المباراة هو إيمان السحرة أنفسهم بربّ موسى وهارون وسجودهم واعترافهم أمام الناس أن ما جاء به موسى ليس سحراً بل معجزات إلهية فقال: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١].

وهذه الشهادة التي صدرت من أهلها كانت بمثابة صفعة قوية أفقدت فرعون رشده، وقلبت الموازين التي وضعها بدهاء وحنكة، فشهد عليه من جاء بهم ليشهدوا له، ولولا إيمان هؤلاء السحرة لربّما نجح فرعون في مخططه.

* * *

ومن دهائه كذلك تركيزه في الصراع مع موسى على مسألة العنصرية، لأنه يدرك تمام الإدراك أن الخلاف العنصري من أهم الموانع المانعة من رؤية الحقيقة.

والعنصرية في الواقع سلاح ذو حدين، فيمكن استخدام العنصرية في إثارة الهمم والعزائم في الأفراد، وبثّ روح التنافس الشريف بينهم وبين العناصر الأخرى، أو لطرد معتد أو لرفع ظلم أو غير ذلك، وهذا هو الاستخدام الصحيح لها.

ويمكن استخدام العنصرية وتوجيهها في بث الفتنة وروح العدوان، ولفت أنظار الناس عن الحق، وهذا هو عين ما فعله فرعون ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ

﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. فألبس الأمر على عوام الناس بين مسألة حق وباطل وبين مسالة القوميات[1].

فالحق في مقابل الباطل شيء، والقومية المصرية في مقابل القومية الإسرائيلية شيء آخر. وهو خلط واضح بين القومية والعقائد.

على كل حال فقد استطاع فرعون استمالة الشعب المصري ضد موسى مستغلاً سلاح العنصرية، وإنني أعتقد كل الاعتقاد أن هذا السلاح الحقير والوضيع قد تخلى عنه المصريون وحمله بعد هلاك فرعون بنو إسرائيل، وهم أسوأ وأحقر من استخدم العنصرية في إثارة الفتن بين الشعوب حتى يومنا هذا، وأسفل من استخدمه في إحياء روح العدوان، والسلب، والنهب في نفوس عنصرهم، فالتكبر والأنانية والتسلط وكل ما شابه ذلك وشاكل اتسم به عنصر بني إسرائيل بفضل العنصرية فقالوا: نحن شعب الله المختار، نحن أبناء الله، نحن...، نحن... أوهام في أوهام في أوهام، فهم ولا شك ورثة فرعون في سلوكه وعقائده، فإن كان لفرعون ورثة لشيطنته وخبثه فهم بنو إسرائيل لا غيرهم.

* * *

---

(1) بهذه المناسبة أذكر أنّ إحدى الصحف المشبوهة أجرت إحصاءً لآراء بعض المثقفين حول ماهية الشعب المصري، هل هو عربي؟ أم إسلامي؟ أم فرعوني؟ أم إفريقي؟ وهذا هو ما فعله فرعون، فقد ألبس الجغرافية والدينية والعنصرية بعضها ببعض مع أن الخلط واضح في هذه المسألة، فالعروبة والانتماء البيئي والإسلام ليس بعضها قسيم بعض، لأن كلاً منها ليس من سنخ الآخر، فالعروبة قومية، والإسلام معتقد ولا تناقض بينهما، وهذا يؤكد أن أساليب فرعون بعينها قد ورثتها الصحافة الصهيونية في المنطقة.

ومن دهاء فرعون استعمال ما يسمّى بالسرقات البصرية، أو بعبارة أخرى تسطيح الصراع بينه وبين موسى بغرض لفت أنظار العوام إلى الظاهر المرئي دون الجوهر في أصل الخلاف **﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾** [الزخرف ٥١-٥٣].

نعم! إنّ فرعون له ملك مصر، ونعم! إنّ الأنهار تجري من تحته، ولكن كلّ هذا لا ربط له بالحق والباطل، فملوكية فرعون وجريان الأنهار من تحته وفصاحته وأساوره التي يتزين بها كل ذلك لا يعني أنه على الحق بل هي دواعي الباطل، ودوافع الطغيان، ومظاهر الإسراف ولكنه استعملها بدهاء في مقابل موسى الذي يحمل الحق ويحمل براهينه وأدلته، بقصد سرقة أبصار العوام ولفت أنظارهم إليه وإخفاء للحق، وتغطية للحقيقة، وبهذه الضوضاء والجلبة التي غالباً لا ينخدع بها إلاّ العوام والسوقة، استطاع استمالة أعداداً كبيرة من قومه لذلك عقب الله سبحانه وتعالى: **﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾** [الزخرف: ٥٤].

هذه بعض النماذج التي تبين قدرات فرعون الفكرية وقدراته على الحوار والمناقشة.

٢- سياسة فرعون في الحكم

مع أن القرآن الكريم قد وصف فرعون بالطاغوتية والظلم إلاّ أنه في جانب آخر ذكر ما يوحي بأنه كان يتمتع بكثير مما يسمّونه الآن بالديمقراطية، أو ما نسميه بمبدأ الشورى وإشراك غيره في الرأي، وأخذ آراء من حوله فيما يختص بالسياسة العامة للشعب. ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۞ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۞ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٨].

هذه الآيات التي تكرر موضوعها في سورة الأعراف أيضاً تؤكد على حدوث هذا الحوار بين فرعون وملأه وتدلّ دلالة قاطعة وصريحة على أن فرعون كان يستشير من حوله، ويأخذ برأيهم، فعندما طلب رأيهم في موسى وما الذي يمكن أن يتّخذه في شأنه، طلبوا منه أن يدعه هو وأخاه وألاّ يقتله أو يسجنه بل يناقشه الحجة بالحجة، فإن كان قد جاء بالسحر ففي مصر سحرة وكهنة يمكن مناقشته ومباراته، ونجد فرعون يأخذ بهذا الرأي، وينفّذ ما قد رأوه فترك موسى وجمع السحرة لمباراته كما رأى وزراؤه ومستشاروه، ولربما كان المقصود بالملأ ليسوا الوزراء والمستشارين فقط وإنما كان مجلس شورى ينعقد ويناقش مثل هذه الأمور، وهذا هو القول الأوجه والأقرب إلى التصديق.

حتى أنه لما رأى أن أمر موسى ودعوته انتشرت في نفوس الشعب المصري، وآمن بها أعداد كبيرة خاصة بعد المباراة بينه وبين السحرة لم يتخذ قراراً من نفسه، بل طلب من المجلس أن يعدلوا عن القرار بترك موسى حراً وأن يسمحوا بقتله. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فقوله: (ذروني) إشارة صريحة وواضحة على أنه لم يكن وحده صاحب القرار في مصر الفرعونية، وأن هناك من يمنعه، ولا أستطيع أن أتصوّر أن المانع له أشخاص بعينهم، وإنما الذي يمكن أن أتصوّره هو أن سلطة القضاء والقانون في مصر هي التي كانت تحول وتمنع فرعون من اتخاذ أي قرار فردي ضدّ موسى عليه السلام، أو في أي أمر من الأمور التي تتعلق بالسياسة والحكم، وتقديم فرعون حيثيات طلبه بتغيير القرار يؤكد وجود سلطة للقانون أو لمجلس شورى سلطته أعلى من سلطة فرعون نفسه.

وهذا يدلّ على منتهى التقدم في سياسة الحكم في مصر الفرعونية، والمتأمل للآيات يدرك هذه الحقيقة بجلاء، ولكن ذلك لا يكون إلاّ بعد التجرد من الخط اليهودي في تفسير النص القرآني المتعلق بقصّته مع فرعون.

ورغم أنه بيّن حيثيات الحكم إلاّ أنّ أحد المستشارين أو أحد أعضاء المجلس رفع صوته بكلّ قوة وشجاعة فعارض رأي فرعون بكلّ شجاعة وثبات ففنده وسخر منه.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ

يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

كلمة حرة في منتهى القوة أمام فرعون رغم الهزّة القوية التي أحدثها موسى بدعوته الخطيرة على العرش والنظام بأكمله.

فعرش فرعون مهدد بالزوال، وربوبيته أصبحت مهددة بالانكشاف والانحصار، ورغم ذلك يستمر فرعون في مناقشة أمر موسى في مجالسه وبين ملأه.

ولابدّ من القول إن هذا المؤمن الذي دوّت كلمته مسامع فرعون ومن حوله لم يفعل فرعون به سوءاً كما قال الله سبحانه وتعالى: **﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾** [غافر. ٤٥].

وأحيل القارئ إلى الرجوع إلى الحوار الرائع لهذا المؤمن مع فرعون وأعضاء مجلسه في سورة غافر ليقف على مدى الحرية التي كان يتكلم بها.

وإن الإنسان ليقف مندهشاً أمام الحوارات الموسوية الفرعونية التي كانت تحدث بكل حرية، فمثلاً: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا ۞ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾** [الإسراء: ١٠١-١٠٢].

فإن فرعون الذي علا في الأرض وتمكن سلطانه وهابه القاصي

والداني يقول لموسى: (إني لأظنّك يا موسى مسحوراً) فيجيبه موسى الذي هو من قوم خدم لفرعون: (وإني لأظنّك يا فرعون مثبوراً) والثبور يعني الهلاك أي وإني لأظنّك هالكاً مقتولاً. وهذا تهديد صريح من موسى لفرعون.

فإذا نظرنا إلى ذلك بعين الإنصاف لغبطنا موسى عليه السلام لوجوده في زمن مثل زمن فرعون.

وإني لأعجب كيف لم يقتل فرعون موسى أو يعتقله؟ أو كيف بقي فوق وجه الأرض ولم يذهب وراء الشمس رغم ما أحدثه؟ بغض النظر عن حقيقة ما جاء به، المهم أن ما جاء به يخالف بل يتعارض مع ما يسمّونه الآن (مصلحة النظام).

نحن إذا قرأنا القرآن بنفس صافية ووقفنا على الحوار بين فرعون وموسى من جهة، وفرعون وقومه من جهة أخرى وقسنا ذلك بما نراه ونشاهده لعلمنا أنّ فرعون هذا قد كان رجلاً حضارياً بالمعنى الصحيح للمصطلح.

وقد يقال: كيف تقول ذلك وهو القائل: **﴿...قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾** [غافر: ٢٩]. أقول: إذا نظرنا إلى سياق الآية الشريفة نجد أن هذا القول هو من باب الادعاء المقبول عرفاً، فإن كل إنسان يرى في رأيه الرأي الصواب، وفي هديه الهدى الرشاد، لكن رؤيا ذلك شيء وإلزام غيره به شيء آخر، وفرعون رأى في نفسه ذلك ولكنه لم يلزم الملأ به بدليل قول المؤمن الذي أشرت إليه قبل ذلك، فلو كان المقصود

من ذلك انفراده بالقرار بقتل موسى لّما قال ذروني أقتل موسى ولّما ذكر حيثيات قراره، وعدم حدوث القتل دليل على أن قول فرعون وهو الحاكم الأعلى لم يزد عن كونه رأياً من الآراء، ووروده بهذه الصيغة لكونه صادراً من رأس الهرم الحكومي في نظام الحكم، ولا توجد إشارة واحدة في القرآن تدل على أن مجلس الملأ قد أخذ برأي فرعون هذا.

فإن أي أمة لا يمكن أن تبلغ رشدها إلاّ بحرية الرأي، وإن مصادرة الرأي الآخر تحت أي شعار كان من شأنه التقهقر والتخلف في زمن تتقدم فيه الأمم وتتنافس إلى الترقّي، ولا يمكن للمرءِ أن يتصور أن مصر الفرعونية بنت حضارتها من فراغ أو نظام (دكتاتوري) فنظام التسلط الفردي لا يمكن أن يبني حضارة كما لا يمكن للجهل أن يبني أمة.

* * *

وأما ما قيل: إن سياسة فرعون كانت قائمة على مبدأ (فرق تسد) وذلك بالنظر إلى قوله تعالى: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً) أقول: إذا نظرنا بدقة أكثر لوجدنا أنه ليس كل من فرق أمته يكون هدفه السيادة، ففرعون قد علا في الأرض فهو لا يحتاج إلى التفرقة ليسود.

وإنما المتأمل يدرك أن السبب الذي جعل فرعون يمزق الأمة هو الولاء الأعمى والتعصب إلى عنصره وطائفته، وهذا التعصب العنصري يكون أقل خطراً إذا كان صادراً من أفراد غير حكام أو مسؤولين، أما إذا حصل هذا التعصب العرقي أو الطائفي من حاكم أو ملك لرعايا من أعراق

وطوائف شتى، فإن ذلك هو عين الخطورة ولا محالة من ورود الأمة إلى الهلكة والدمار.

وهذا هو الذي حدث من فرعون، فتعصبه لعنصره وفرض معتقداته أدى إلى تعصب الآخرين لأعراقهم وطوائفهم، وهذا ردّ فعل طبيعي، فالإنسان مهما كان عنصره دني إلا أنه يتمسك به ويتعصب له إذا ما رأى خصمه يتعالى بعنصره ويفخر عليه به، وإذا قرأنا التاريخ نلاحظ أن هناك حضارات أبيدت وأمم هلكت بسبب رعونة ملوكها وتفضيل عنصر على عنصر، أو طائفة على أخرى، لهذا بتر الإسلام – قرآناً وسنة – الدعوة إلى العصبيات، وشدّد على اقتلاع جذورها من أعماق الفرد والجماعة، وأخرج من يدعو إليها من الإسلام بالكلية، فقول رسول الله صلوات الله عليه: (ليس منا من دعا إلى عصبية) تحذير لدعوة العصبية، ودعاة العرقية.

وفرعون مثال واضح للحاكم الذي أورد نفسه وأهله الهلكة والدمار بسبب دعوة العنصرية.(وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين).

ومن ثمّ لم يكن تفريق فرعون لأهل مصر من باب المبدأ القائل (فرّق تسد) وإنما من باب العصبية العرقية والرضوخ لنزعة التفوق العنصري.

٣ ـ دين فرعون وعقيدته

لا يوجد من البشر من ليس له دين أو إله أو قوة خفية يخشاها ويرجوها، مهما كان معتقده في البعث والخلود، أو في الموت والحياة، حتى هؤلاء الذين يدّعون عدم وجود إله لهذا الكون الذين يطلق عليهم الملاحدة أو الدهرية، فإن هؤلاء مهما كان أمرهم ومدّعاهم فإن في أعماق وجدانهم ما يخشون غضبه ويرجون خيره، هذا الشيء الخفي هو الإله وإن أنكروه.

وفرعون بشر مولود من أب وأم بشريان، ورث الملك ويعلم أنه سيورثه كما ورثه، وله زوجة وله مستشارون يستشيرهم، ويشاركهم في الرأي كما ذكرت.

وفرعون يحارب، تارة ينتصر وأخرى ينهزم، ويعلم أن هناك ملوك مثله في ما بين الرافدين، وفارس وغيرهما من ممالك، فهو يحتاج، تارة يعطي، وتارة يمنع، ويتفاءل، ويتشاءم، ويطلب من الكهنة والمنجّمين قراءة طالعه، ويحاور، ويتحدى، وغير ذلك من الشؤون التي يعلمها فرعون في نفسه وتعلمها رعيته.

وهذا كله يدلّ على أن فرعون يعلم أنه ليس هو رب العالمين، وأنه ليس هو الإله الخالق البارئ، ولم يكن فرعون هو وحده الذي يعلم هذه الحقيقة بل كل من حوله يعلمها، زوجته، وقومه، وملأُه، وأعداؤه، وأحبابه، والمنجمون، والكهنة، وغيرهم.

بعد هذا كله نتساءل هل يمكن أن يدعي فرعون الربوبية المطلقة أو الألوهية المطلقة كما هو ثابت في الأذهان؟

إن من المؤكد أن الربوبية المطلقة أو الألوهية بمعناها الراسخ في النفوس والأذهان لا يمكن أن تنسجم مع كل ما أثبته القرآن في المناقشات والأخبار عن فرعون وموسى، وفرعون وقومه، التي تؤكد أن فرعون وقومه يعلمون أنه مخلوق مثلهم يصيب ويخطئ، ومن ثم نستبعد كل البعد أن يكون المقصود من الربوبية أو الألوهية التي إدعاها وأخبر عنها القرآن الكريم أن يكون معناها الربوبية المطلقة الثابتة في الأذهان أو ما نسميه بالمعنى العرفي.

إن قول فرعون للملأ حوله: ﴿... قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠]

وجواب الملأ: ﴿...قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١] لا ينسجم مع مفهوم ربوبية العالمين، لأن رب العالمين لا يمكن أن يستشير الملأ حوله في مسألة مثل مسألة موسى، ولا يمكن أن يأخذ برأيهم.

بل ملأ فرعون ومستشاريه ليسوا كملأ ومستشاري الملكة (بلقيس) ملكة سبأ الذين قالوا: ﴿...وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

وإنما قالوا: (أرجه وأخاه) في حين أن هذا الرأي يعارض ما أراده فرعون في قوله: (ذروني أقتل موسى وَلْيَدْعُ ربَّه).

وأما قوله تبارك وتعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات. ٢٣-٢٤]. هذا القول (أنا ربكم الأعلى) قول لا شك في صحته لأنه بالفعل ربّ للمصريين في زمانه باعتباره الملك المتصرف في أمورهم، وحيث إنه لا ملك فوقه ولا سلطان عليه من أحد لا من داخل مصر ولا من خارجها، ومن ثمّ فهو الربّ الأعلى لهم، والربّ هنا ليس معناه (رب العالمين) أي ليست الربوبية المطلقة التي هي المقصورة على الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من قبيل قول العرب: (ربّ البيت، ربة البيت، رب الإبل، وغير ذلك).

وقد ورد هذا المعنى للربوبيّة في سورة يوسف عليه السلام ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] بمعنى يسقي ملكه خمراً أي يكون نديماً للملك، فالربّ هنا بمعنى ملك مصر.

وقول فرعون: (أنا ربكم الأعلى) بمعنى أنه المتصرف في أمرهم وليس لأحد غيره حق التصرف في عقائدهم وما يصلحهم لا موسى ولا غير موسى.

وأسلوب الذم في الآية الشريفة ليس لكونه قال: (أنا ربكم الأعلى) وإنما استحق الذم في الآية لأنه استخدم سلطته تلك في الصد عن سبيل الله وإظهار الفساد في الأرض.

* * *

وأما قوله: (ما علمت لكم من إله غيري) وقوله لموسى عليه السلام: (لئن اتخذت إلهاً غيري...) فإن ذلك يتعارض في اللفظ - وليس في المعنى - مع قول قوم فرعون له كما جاء في سورة الأعراف ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فآية الأعراف تؤكد أن لفرعون آلهة. ومن ثمّ كيف يكون لفرعون آلهة ثمّ يدعي هو نفسه أنه إله؟

فلابدّ إذاً أن يكون المراد من معنى الألوهية في الآيتين الأولتين خلاف معناها في الآية الثالثة جزماً.

وحيث إنّ لفرعون آلهة فإنه يعني أن له ديناً يدين به وعقيدة يعتقدها هووقومه، وقد صرّح فرعون بذلك في قوله: (إنّي أخاف أن يبدّل دينكم...) ومن مجموع الآيات وضميمة معانيها نستنبط أن عقيدة فرعون وقومه مبنيّة على أن فرعون هو الذي يمثل الإله لشعب مصر، بمعنى أنه خليفة الله عليهم، وأن طاعتهم وعبادتهم لفرعون تعني بدورها عبادة لإله فرعون لأنه هو الذي جعله إلهاً عليهم.

وهذه العقيدة ثابتة في الآثار المصرية القديمة حيث إنهم كانوا يعبدون إله فرعون، ولكن عن طريق عبادة فرعون نفسه.

ومن ثمّ يكون معنى قوله: (ما علمت لكم من إله غيري) أي أنه لم يعلم أن الآلهة قد وكّلت غيره على الناس.

وهذه العقيدة ليست مقصورة على ملوك مصر في تلك الأزمان، بل ملوك الفرس كانوا يعتقدون أن الملك (الشاه) منصّب من قِبل الآلهة، وأنها هي التي اختارته لهم، ويطلقون على ملوكهم ظل الله في الأرض.

والعرب كانوا يُسمّون الحجارة أو الخشب المنحوت آلهة، وإذا سألهم سائل من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّا يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وإنما كانوا يعبدون الأحجار والأخشاب (الأصنام والأوثان) لتقربهم إلى الله زلفى كما أخبر تبارك وتعالى في سورة الزمر، وبعبارة أخرى أرجو أن تكون أدقّ هو أنهم كانوا يعتقدون أن عبادة الإله المطلق لا يمكن أن تكون صحيحة إلاّ عن طريق عبادة الآلهة الخاصة، كما هو الحال في عقائد الإغريق، فقد كانوا يجعلون لكلّ ظاهرة كونية إلهاً خاصاً بها يكون واسطة بينهم وبين ربّ الأرباب أو الإله المطلق.

* * *

وأما من هو إله فرعون؟ فإن أغلب الظنّ كما وجدوا في الآثار المصرية أنه كان يعبد (الشمس) فقد كانوا يسمون بعض الفراعنة منهم: (رمسيس) وهي مختصر (رع) (مسس) وهي لغة مصرية قديمة فكلمة (رع) بمعنى راعي أو خادم، أو سادن و (مسس) أي الشمس، وإلى الآن

يتلفظ بعض المصرين كلمة الشمس (سمس) بقلب الشين المعجمة إلى سين مهملة[1].

وهذه العقيدة نوع من أنواع الدجل والتخويف يمارسه الملوك لإخافة شعوبهم من معصيتهم والتمرد عليهم، وترغيبهم في طاعتهم والولاء لهم.

وعقيدة بني إسرائيل ليست أحسن حالاً من عقيدة فرعون، بل هي أسوأ وأضل سبيلاً.

فبنو إسرائيل بعد موسى صنعوا ربهم على هواهم وتقولوا عنه أقوالاً لصالح عنصرهم وجعلوه مخصوصاً لهم، وأنه خلق الناس ليكونوا مطايا وخدماً وعبيداً لهم، أي أنه خلق شعب بني إسرائيل له ثم خلق غيرهم لهم.

فكما أن آلهة فرعون عنصريون فكذلك آلهة بني إسرائيل، فلا فرق نراه بين العقيدة الفرعونية والعقيدة الإسرائيلية.

وبذلك نكون قد وصلنا إلى أهمّ معالم الصراع بين موسى وفرعون من خلال التفريق بين صراعهما قبل نبوّة موسى وبعد النبوّة، وبين صراع بني إسرائيل وفرعون قبل وجود موسى، وقد ظهر أنّ الصراع بعد النبوّة قد أخذ الشكل الديني والعقائدي، وقبل ذلك لم يكن هذا الصراع بهذا الشكل أو الطابع الديني، وأنّ خلط الأسباب ودواعي الصراع في

---

[1] هناك معنى آخر للفظ (سيس) الموجودة في كلمة (رمسيس) وهي أنها مخفف (موس) أي الطفل أو الابن وذهب بريستيد صاب كتاب تاريخ (مصر القديم) أنها الأصل الذي اشتق منه اسم موسى ورأى أن اسم موسى لفظ مصري وليس عبرياً وهذا الرأي أميل إله.

المرحلتين يثير الضباب والغبار حول القصة وأطرافها، فيحول دون الرؤية الصحيحة لقراءة الأحداث، ويحول دون فهم المراد من الخطاب القرآني في سرده لقصة الصراع بين الطرفين.

وإنّ بني إسرائيل يستفيدون من خلط الأمور والأحداث في قصتهم مع فرعون، ويلبسون صراعهم بصراع موسى في مرحلة ما بعد النبوّة، فيرتدون بذلك لباس الإيمان والمظلومية والبطولة والصبر وغير ذلك مما نسبوه لأنفسهم كذباً.

ومن جهة أخرى ألبسوا عدوهم عكس ما ألبسوه لأنفسهم، ولكنه بعد التقسيم الثلاثي في قصتهم في مصر يتضح أنه لا فرق إطلاقاً بين إجرام فرعون وإجرام بني إسرائيل، ولا بين عقيدته المنحرفة وعقيدتهم، مع إيماني الشديد بأن جرائمه إن قيست بجرائمهم لا تُعَدُّ شيئاً مذكوراً.

وأخيراً أدعو القارئ أو الباحث على وجه الخصوص إلى إعادة النظر في قراءة قصة بني إسرائيل مع فرعون عسى أن يستنبط منها ما لم أستطع استنباطه، أو يقف على خفايا لم تظهر لي.



شبهـــات

أصبح من المعلوم أن قصة الصـراع الإسـرائيلي الفرعونـي مـن أبـرز وأهـم القصص القرآني، والعارف بالخطاب القرآني في سـرد القصـص والإخبـار عـن حدث معين في التاريخ لأي أمة من الأمم، أو شعب مـن الشـعوب، يعلـم أن وراء الخطاب القرآني هدف يريد إيصاله إلى أذهان وضمائر الناس.

وتكرار قصة بني إسرائيل وفرعون ينطلق من هذه القاعدة أي قـاعدة أن لكل قصة هدف، ونظـراً لتعـدد جوانـب هـذه القصـة وكـثرة الأمـور والمسائل الهامة التي تضمنتها نستطيع أن ندرك سبب التكرار.

فتارة يروي حواراً بين موسى وقومــه، وتـارة بـين فرعـون وموسـى، وثالثة مع موسى والسحرة، ورابعة مـع فرعـون والسـحرة، وخامسـة مـع فرعون وقومه، وكل حوار أو حدث يشير إلى جانب من جوانب القصة، وهذه الجوانب كثيرة ومتعددة الغايات والأهداف.

فكثير من الأحيان يكـرر القـرآن ذكـر حـدث مـن أحـداث القصـة، وذلك حسب الحالات التي يتضمنها الحدث نفســه، فمـرة يكـون القصـد من ذكره الموعظة، ومـرة أخـرى يكـرره لقصـد بيـان حالـة اجتماعيـة أو سياسية أو عقائدية... وهكذا.

ويمكن الوقوف على مقاصد الآيات الشريفة في القصة من خلال السياق أو الموضوع الذي ذكرت فيه، أو القرائن الداخلية أو الخارجية أو غير ذلك من وسائل إدراك مرادات النص، ولكثرة ما ورد في القرآن الكريم من آيات تتعلق بأحوال شعب إسرائيل، تارة مع فرعون، وأخرى مع موسى، وثالثة فيما بينهم، فقد سبّب هذا التكرار اشتباهات في فهم المقاصد لبعض الآيات الشريفة.

وهذه الاشتباهات نتجت عن عدم فهم التراكيب اللفظية في الآية، أو نتيجة عن فصل معنى الآية الشريفة عن مجمل الآيات الواردة في قصتهم.

وأهم من هذا وذاك ورود آثار تفسيرية في التراث عن بعض اليهود الذين انتحلوا الإسلام فوضعوا في تفسير الآيات ذات العلاقة بقصة بني إسرائيل مع فرعون ما يخدم مصالحهم، وعنصرهم، وقد أدى ذلك إلى لفت أنظار وأذهان المسلمين عن حقيقة مضامين الآيات ومقاصدها الصحيحة، وعملت من جهة أخرى على تجميد المعاني القرآنية وتوقيفها عند أقوال هؤلاء الناس، أو على الأقلّ عملت على حصر النظر في الجمل أو المعاني القريبة والسطحية للخبر، فلم نجرؤ على إنفاذ النظر أكثر مما فرضوه علينا، وذلك عن طريق وضع مسحة قدسية على تلك الأقوال.

ولّما التزم المفسرون بهذه الأقوال وتناقلوها في كتبهم طرأت عليها الشهرة، واكتسبت شيئاً من القداسة الموهومة فأدّت إلى ترسيخ الشبهات في أذهان الناس.

لدرجة أن أحد (الحاخامات) - علماء اليهود - صرح بأن القرآن نفسه حجة لهم على المسلمين، وهذا ما أوقع في نفوس الناس اضطراباً بين واقع إسرائيل والآيات الكثيرة الهائلة التي فضحت بني إسرائيل وممارساتهم من جهة، وبين بعض الآيات التي تتحدث عنهم في زمن موسى ودخولهم الأرض المقدسة وأن الله قد كتبها لهم وأنهم ورثوا الأرض بعد فرعون، وأنهم كانوا ملوكاً... وغير ذلك. من جهة أخرى. وفي إحدى لقاءاتي ببعض المثقفين والكتّاب المسلمين، قالوا: كيف نكذب مقولة بني إسرائيل بأن فلسطين هي أرض الميعاد، وأنّ وطنهم يمتد من النيل في مصر إلى الفرات في العراق في حين أن القرآن الكريم يشير إلى هذه المقولة في أكثر من موضع؟

والحقيقة هي أن تلك الآيات المشار إليها والتي سأتناولها بالبحث والتأمل لا يمكن الوقوف على حقائق معناها إلاّ إذا نظرنا إليها بموضوعية بعيداً عن توجيه ما قيل في تفسيرها في كتب التراث اعتماداً على روايات لا أصل لها، وأقوال غير معتبرة عند علماء الحديث.

ولهذا فسوف أتناول الآيات الشريفة محل الشبهات بالبحث والدراسة الموضوعية لكشف الشبهات عنها، والوصول إلى مقاصدها الحقيقية إن شاء الله تعالى.



الشبهة الأولى

من هذه الشبهات:

قوله تبارك وتعالى: **﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٧] هذه الآية المباركة التي تخبر عن توريث الله سبحانه وتعالى مشارق الأرض ومغاربها لقوم وصفهم بأنهم كانوا يُستضعفون، وقع فهمها في أذهان الناس موقع الاشتباه لما علق في ذهنهم أن هؤلاء القوم هم بنو إسرائيل وأن تلك الأرض هي أرض مصر والشام وما حولهما باعتبار أن فرعون كان هو الحاكم لتلك الأرض وهذا القول لا أساس له من الصحة بل ليس صحيحاً بأي وجه من الوجوه لاعتبارات عديدة، ومن أجل بيان الحقيقة يلزم أن يدور البحث حول المحاور التالية: ما هي تلك الأرض الموروثة؟ ومن هم هؤلاء المستضعفون الذين ورثوا أرض فرعون؟

إذاً فهناك ثلاثة محاور: الأول: الأرض الموروثة. الثاني: المُورِّث لهذه الأرض. الثالث: القوم الذين ورثوها.

ولا شكّ أن الأخبار تصرّح بأن المُورِّث هو فرعون ونظام حكمه، وأما الطرف الوارث فالمشهور المتناقل بين المفسرين هم بنو إسرائيل، وهذا

هو محل الخلاف بيني وبينهم، ومن ثَمّ فهو محل البحث والعمود الفقري فيه، وما عقدت البحث إلاّ من أجله.

واختلفوا حول الأرض التي ورثوها، ولكي نصل إلى الحقيقة في معرفة القوم الذين ورثوا الأرض بعد هلاك فرعون لابدّ من الإجابة على السؤالين السابقين.

الأول: أين هي تلك الأرض الموروثة؟

قال بعض المفسرين إن الأرض الموروثة هي أرض الشام ومصر، فالشام هي التي أشير إليها (مشارق الأرض) وأما أرض مصر فهي التي أشير إليها بـ (مغارب الأرض) وأن هذه الأرض هي التي كان يحكمها فرعون.

ومن المفسرين من قال: إنّ المقصود بالأرض هي أرض فلسطين وما حولها من بلاد العمالقة أي بلاد الشام التي تمتد حتى الفرات.

ومنهم من ذهب إلى أن المقصود بالأرض هي كل الأرض[1].

إذاً هناك ثلاثة أقوال مشهورة.

فإما أن تكون الأرض هي التي كان يحكمها فرعون والتي تمتد من مصر إلى الشام وتشمل فلسطين، وإما أن تكون أرض فلسطين فقط، وإما أن تكون كل الأرض.

فمن قال بالرأي الأول كان بناؤه على أن الآية تتحدث عن وراثة فرعون، وحيث إنه قد علا في الأرض، وامتد حكمه من مصر إلى الشام

---

[1] يراجع كتب التفاسير مثل: ابن كثير، الفخر الرازي، الطبري، وظلال القرآن. في تفسير الآية.

وتوابعها فلابد أن تكون هذه الأرض هي المقصودة في الآية الشريفة.

وهذا القول هو الصحيح الذي يتفق مع السياق والموضوع.

وأما القول الثاني فقد بنى قائلوه رأيهم على أن كلمة (باركنا فيها) مخصوصة بأرض فلسطين لأن الله سبحانه وتعالى لم يصف أرضاً بالبركة غير الأرض المقدسة التي هي فلسطين إلاّ ما وصف به الكعبة المشرفة، ومن ثمّ فالأرض المقصودة هي أرض فلسطين.

والحق أن ذكر الأرض بالبركة لا يعتبر دليلاً على ذلك لأن الوصف بالبركة غير الوصف بالقداسة.

فكل أرض ذات خير وفير وزراعة وعطاء ونماء يصح أن تتصف بالبركة، لهذا فإن الصفة هنا ليست خاصة بأرض فلسطين، بل أرض مصر وفلسطين والشام كلها أرض خير ونماء وزروع لذلك فإن كل هذه الأرض يمكن أن تتصف بالبركة.

ثم لو كانت فلسطين لما صح وصف الله لها سبحانه وتعالى بالوصف الذي يوحي بالسعة التي تمتد من الشرق إلى الغرب.

ومن ثمّ فإن القول بأن الأرض هي أرض فلسطين ليس صحيحاً، بالإضافة إلى أن السياق والموضوع يؤكد عدم صحة هذا القول.

وأما أصحاب الرأي الثالث الذين ذهبوا إلى أنّ المقصود بالأرض هي كل الأرض بنوا قولهم على أن (الألف واللام) في قوله: (مشارق الأرض) للدلالة على الجنس أي جنس الأرض، وهذا القول لا يتفق مع السياق والموضوع

ويتنافى مع العرف حيث لا يتصور أن يكون ورثة فرعون مهما كان عددهم يمكن أن يرثوا كل الأرض، وأما بالنسبة للألف واللام فليست لبيان الجنس كما ذهبوا، وإنما هي ألف ولام العهد، أي الأرض المعهودة بين المخاطِب بكسر الطاء والمخاطَب بفتحها أي المعهودة بين المتخاطبين.

ومن ثمّ يتأكد أن الأرض الموروثة هي الأرض المتعلقة بحكم فرعون الذي أهلكه الله سبحانه وتعالى هو وجنوده، وهي على أقلّ تقدير أرض مصر، أي شرق مصر وغربها، وأما إذا أردنا ضمّ أهل الشام وفلسطين لها فباعتبار امتداد حكم فرعون إليها كما ذكر التاريخ ودلت على ذلك الآثار، ولكن ذلك أمر ثانوي غير داخل في أصل الموضوع لأن الله سبحانه وتعالى عندما يخبر عن فرعون، فباعتباره ملك مصر التي دارت فيها الأحداث، وأما توابعها سواء كانت أرض الشام وفلسطين أم أرض السودان والحبشة، فدخولها في المسألة ليس هاماً وإنما المهم هو التأكيد على أن الأرض الموروثة أرض تتعلق بفرعون بالدرجة الأولى، وهي لا شكّ أرض مصر.

بعد بيان الأرض الموروثة وأنها هي أرض مصر يسهل علينا حينئذ معرفة القوم الذين ورثوها بعد هلاك فرعون والذين وصفهم الله بقوله: (الذين كانوا يستضعفون).

ومن المعلوم أن عناصر الميراث ثلاثة هي: المورِّث، والموروث، والوارث، ومن ثمّ يظهر لنا أن فرعون هو الطرف المورِّث وملك مصر

هو الموروث، وأما الطائفة الوارثة فهي التي نبحث عن هويتها من خلال النظر في المعاني الخفية من القصة كما وردت في القرآن.

من خلال ما أدركناه يلزم أن يكون الورثة هم قوم حكموا مصر أو مصر والشام بعد حكم فرعون مباشرة أي أنهم خلفوه في حكمها.

إذا وضح لنا ذلك فحينئذ يكون قول المفسرين بأنهم بنو إسرائيل قول غير صحيح إطلاقاً لما سنبينه.

ذكر المفسرون أن الذين استضعفوا في الأرض هم بنو إسرائيل، وأنهم هم المعنيون في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ...﴾ [الأعراف: ١٣٧] أي أنهم هم الذين ورثوا حكم مصر بعد هلاك فرعون وهذا القول لم أجد من المفسرين من خالفه، إلاّ أنهم ينقلونه عن بعضهم بعضاً نقل المسلمات، دون تدقيق في الآية الشريفة وموقعها من أحداث قصة بني إسرائيل في مصر.

(الفخر الرازي عندما رأى أن الأرض الموروثة هي كل الأرض أدرك أن هذا الخبر لم يحدث في زمن موسى الذي عاش في زمن فرعون فاضطر إلى حمل الآية على أنها إخبار بما سيحدث لبني إسرائيل وأنهم سيحكمون الأرض كلها في زمن داود وسليمان ومن ثمّ يكون معنى قوله تعالى في نظر الرازي (سنورث القوم الذين كانوا يستضعفون...).

وهذا القول كما هو واضح بعيد كل البعد عن روح الآية وسياقها بل ولفظها أيضاً.

وكذلك المفسرون الذين قالوا إن الأرض الموروثة هي أرض مصر والشام أو فلسطين.

عندما انتقلوا إلى تفسير الآية التالية للآية التي معنا ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ...﴾ [الأعراف: ١٣٨] وجدوا أنه لا يصح أن يكونوا قد ورثوا أرضاً – أي أرض – بعد هلاك فرعون مباشرة. فهم قد خرجوا من مصر هائمين على وجوههم في صحراء سيناء، فكيف بهم يرثون أرضاً طويلة عريضة تمتد من مصر إلى الشام، فاضطروا حينئذ إلى حمل الوراثة على ما حمله الفخر الرازي بأن الآية إخبار لما سيحدث لهم، وهذا خلاف واضح لمراد الآيات وموقعها من الأحداث، فالنص القرآني يخبر عن حدث وقع في زمن موسى، وأن فرعون الذي هلك وورث حكمه الذين استضعفوا هو فرعون الذي عاش في زمن موسى وهو الذي قتل أبناءهم واستبقى نساءهم، وهو خلاف لما ذهبوا إليه بأن وراثة حكم مصر تأخر بعد زمن موسى.

وأما ما ذهب إليه المفسرون بأن وراثة حكم مصر قد حدثت في زمن دولتهم وملوكهم داود وسليمان فإن هذا القول يلزمه عدة أمور غير صحيحة لا تتفق مع النص.

أولاً: أن يكون فرعون المورَّث ليس هو فرعون موسى الذي غرق في اليم وهذا غير صحيح لأن الآية تتحدث عنه وتخبر بمجريات قصة حدثت في زمانه، وأن الوراثة كانت منه هو وليست من غيره من الفراعنة.

ثانياً: أن يكون بنو إسرائيل غير متصفين بصفة (المستضعفين) لأنهم

في الوقت الذي كان لهم دولة وملوك لـم يكونـوا مسـتضعفين في الأرض بل متكبرين متغطرسين، ارتكبـوا كـل أنـواع الجرائـم مـن سـفك الدمـاء وحرق ونهـب واغتصـاب وغـير ذلـك ممـا شـاكل وشـابه كمـا ذكـرتْ توراتهم ونقلتُ بعضاً منها في صفحات سابقة من هذا الكتاب.

بالإضافة إلى خلاف ما نصت عليه الآية الشريفة، فالآيـة تنـص علـى أنّ الذين ورثوا الأرض قوم اتصفوا قبيل وراثتهم بالاستضعاف.

ثالثاً: لو كانت الآية تشير إلى ما سيحدث لبنـي إسـرائيل بعـد زمـن موسى كما قالوا للزم أن تكون الآية كلها في مقام الإخبار عـن المسـتقبل وليس الجزء المخصوص بالوراثة فقط، بمعنى أن وراثة الأرض، وإتمام كلمة ربك الحسنى، وتدمير ما كان يصنـع فرعـون، هـذه الأشـياء الثلاثـة التـي ذكرتها الآية لابد أن تكون هي الأخرى لم تقع في زمن فرعـون موسـى، وإنما تقع موقع الإخبار بالحدوث في المسـتقبل، وهـذا خـلاف لفـظ الآيـة ومعناها ومجريات القصـة، وأمـا إذا حملنـا جملـة (وأورثنـا) علـى الإخبـار بالمستقبل، والباقي من الآية على الإخبار بما وقـع يتنـافى هـذا الحمـل مـع فصاحة القرآن الكريم، والأعراف اللغوية.

ومن ثمّ لابدّ أن يكون القوم الذين ورثوا فرعـون معـاصرين لفرعـون مستضعفين في حكمه وأن يكون لهم الحق في الوراثة عرفاً، وأنهـم ورثـوا الملـك والأرض بعـد هـلاك فرعـون مباشـرة كمـا هـو واضـح مـن الآيـة وسياقها، وليس كما ذكر المفسرون.

أما إذا قيل: إن الورثة هم جيل شعب إسرائيل الذين كانوا مع موسى وعبروا البحر معه قد عادوا إلى مصر، وحكموها بعد موت فرعون لأنهم هم المتصفون بالاستضعاف.

أقول: إن ذلك غير صحيح البتة حيث لم يثبت أن بني إسرائيل قد حكموا مصر حتى في زمن داود وسليمان، بل لم يثبت دخول شعب إسرائيل مصر بعد خروجهم مع موسى وهلاك فرعون، والقرآن الكريم يخبر بأنهم خرجوا من مصر إلى سيناء وبقوا فيها إلى أن مات موسى عليه السلام، ثم دخلوا بعدها أرض فلسطين وأقاموا فيها وطناً لهم، وكذلك ليسوا هم وحدهم من اتصف بالاستضعاف، فقد استضعفهم فرعون كما استضعف غيرهم من المصريين الذين آمنوا برسالة موسى.

ومن ثمّ نقطع بأن الذين ورثوا مشارق الأرض ومغاربها بعد هلاك فرعون ليس هم شعب إسرائيل، وإنما هم قوم آخرون لهم الحق في الوراثة عرفاً ويتصفون بالاستضعاف كما ذكرت الآية.

ولكي نعرف من هم المستضعفون الذين ورثوا الأرض لابدّ من التدبر في الآية، في موقعها من السرد القصصي، ومدى علاقتها بالقصة، ومعرفة المعنى المراد من بعض ألفاظها ذات العلاقة بالقوم والاستضعاف والوراثة.

أولاً: تقع الآية الشريفة (وأورثنا القوم...) بين مقطعين أو فصلين من القصة، فهي تتوسط انتهاء مرحلة وبداية مرحلة جديدة.

فالمرحلة الأولى: هي مرحلة التسلط الفرعوني واستضعاف لبني

إسرائيل وغيرهم ممن خالفوه من شعب مصر.

والمرحلة الثانية: هي مرحلة ما بعد هلاك فرعون وتخليص الناس من شروره.

فالآية التي معنا جاءت متوسطة بين المرحلتين، أي أنها تذييل وتعقيب للمرحلة الأولى، وتمهيد للمرحلة الثانية.

فبعد أن أهلك الله فرعون وجنوده **﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾** [الأعراف ١٣٦]. بعد ذلك هدأت الأوضاع العامة في مصر عموماً ونُجي بنو إسرائيل، إذاً فالمرحلة ما بعد فرعون ليست فقط متعلقة ببني إسرائيل بل هي أيضاً متعلقة بالمصريين داخل مصر.

فالآية تمهد لذكر الأوضاع في مصر بعد العهد الفرعوني، وذلك لذكر حالة بني إسرائيل بعده، أي أن الآية تمهّد لمرحلة ما بعد هلاك فرعون وهذا هو عين ما اشتملت عليه الآية من موضوعات ثلاثة كل موضوع منها متعلق بشخصية من الشخصيات التي شكلت بناء القصة وهم:

١- فرعون وجنوده.

٢- القبط المصريون الذين آمنوا بالرسالة الموسوية.

٣- موسى ومن معه من الشعب الإسرائيلي.

كل موضوع من موضوعات الآية التلاث متعلق بشخصية من تلك الشخصيات.

الأول: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا..﴾.

الثاني: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

الثالث: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]

فإذا أعدنا كل موضوع لمن يتعلق به من الشخصيات، نجد أن فرعون قد أهلكه الله سبحانه وتعالى، ودمّر ما كان يصنعه بالناس.

وأما شعب إسرائيل فقد تمت كلمة الله عليهم، فأنعم عليهم بالخلاص من فرعون وجاوز بهم البحر، وبدأت حياتهم الخاصة مع موسى ومن خَلفه في سيناء ثم في أرض فلسطين، كما أوضحت الآية بعد ذلك.

وأما المصريون المؤمنون وهم العنصر الثالث أصبح لا شك أنهم هم المعنيون بوراثة ملك فرعون وأرضه، سواء كانت أرض مصر فقط أم أرض مصر والشام، وهذا ما يؤيده المعنى من كلمة إرث، فالإرث هو انتقال ملكية شيء مادي أو معنوي من شخص هلك إلى شخص آخر بضميمة أن يكون الوارث ذا علاقة بالموروث والمورث.

وشعب إسرائيل لا علاقة لهم بورثة فرعون، ولا بميراث مصر، وإنما العلاقة قوية بين أمة فرعون وفرعون، وبين المؤمن الذي كتم إيمانه وبين فرعون، وكذلك الذين آمنوا من المصريين بعقيدة التوحيد والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، فإن هؤلاء هم أصحاب حق وراثة فرعون في حكم مصر.

وهؤلاء القوم قد استضعفوا، فصحّ وصفهم بـ (الذين كانوا يستضعفون) فقد صلبهم فرعون في جذوع النخل وقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأخاف المؤمن الذي كتم إيمانه ونجّاه الله منه، وامرأة فرعون

التي كانت تستغيث الله وتتمنى الموت فراراً من عمله.

هؤلاء هم القوم الذين أشار الله إليهم في قوله بعد ذكر ما حدث لفرعون وحاشيته وجنده. ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۞ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۞ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۞ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنْ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٣١].

فقد هلك فرعون وترك الجنات والعيون، والزروع والمقام الكريم والنعمة التي كان يتمتع بها وورثها قوم آخرون، وهؤلاء لا شكّ أنهم من بني جنسه من الذين آمنوا واستضعفوا، وأما بنو إسرائيل فقد نجاهم الله من العذاب المهين بفرارهم من مصر ولم يعودوا إليها مرة أخرى، والفصل واضح بين القوم الآخرين وحالهم وبين بني إسرائيل وحالهم في الآية الكريمة.

إذاً هناك ثلاثة أقوام وثلاثة حالات. لكل قوم منهم حالة من تلك الحالات الثلاثة:

١- فرعون وجنوده: حالهم أهلكهم الله.

٢- المؤمنون المصريون: حالهم ورثوا الحكم والأرض بعد فرعون.

٣- بنو إسرائيل: حالهم نجوا وتخلصوا من العذاب الأليم.

بعد هذا البيان أرى أن الشبهة قد انكشفت عن الآية الشريفة، واتضح أن الذين قد ورثوا حكم مصر والشام ليس هم بنو إسرائيل إطلاقاً، وإنما ورثها أهلها المؤمنون... فتأمّل!

الشبهة الثانية

ومن هذه الشبهات أيضاً قوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

ظاهر الآية الشريفة يشتبه القارئ في فهم المعنى الواقعي منها فيتوهم أنها أسلوب مدح لبني إسرائيل وتفضيل لهم، وأن الله جعلهم أئمة وجعلهم وارثين، ثم مكّن لهم في الأرض، وأن الله أهلك عدوهم إكراماً لهم، ولكن المتأمل في الآية والمتدبر فيها يجد أن المعنى على غير ما ارتكز في أذهان الناس.

صحيح! إن الذين استضعفوا في الأرض في هذه الآية الشريفة هم شعب إسرائيل، وأنهم المعنيون من قوله تعالى **﴿نجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض﴾**. ولكننا لا بد من فهم مقاصد الآيات الشريفة حتى لا نقع في فهم خاطئ حول هذه الموضوعات الثلاث التي تضمنتها الآيات.

وقبل الدخول في تحليل الآية وبيان مقاصدها لابدّ من تساؤل هام هو: لماذا لم يذكر الله سبحانه وتعالى في الآية بني إسرائيل صراحة؟

وبعبارة أخرى لماذا لم يذكرهم باسم العلم الذي وضع لعنصرهم (بني إسرائيل) وإنما ذكرهم بالوصف المنطبق عليهم (الذين استضعفوا في الأرض)؟

وهذا التساؤل ليس سؤالاً عابراً أو عفوياً، فالإجابة عليه داخلة في صلب الموضوع ولبه، بل إنّ الإجابة الصحيحة عليه تغير كثيراً من المفهوم السطحي للآية، وتغيير لكثير مما هو راكز في الأذهان.

ومن أجل الوصول إلى إجابة صحيحة ودقيقة لهذا التساؤل لابدّ من التدبر في معاني الآية، من حيث اللغة، ومن حيث الموضوع.

بحث لغوي:

بدأت الآية الشريفة بـ (ونريد أن نمنّ ...) وبداية الآية بالواو تعني أن الآية ذات علاقة قوية بالآية التي قبلها سواء كانت العلاقة في المعنى أو في الموضوع، والآية قبلها هي (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنّه كان من المفسدين)، (فالواو) إما أن تكون (استئنافية) أي لغرض استئناف موضوع جديد متعلق أو مترتب على الموضوع الذي قبله.

أو أن تكون (الواو) بمعنى (مع) أي أنه لما كان فرعون عالٍ في الأرض يستضعف طائفة منهم، مع ذلك نريد أن نمنّ على تلك الطائفة المستضعفة ونجعلهم أئمة و... إلى آخره.

أو أن تكون (الواو) للدلالة على الحال بمعنى يستضعف فرعون طائفة والله يريد أن يمنّ عليهم، أي حال إرادة الله لهم بالمنة والتمكن في الأرض.

وعلى أي معنى كانت (الـواو) فـإن الرابـط بـين الآيتـين قـوي يفيـد التقابل بين ما يفعله فرعون ويمارسه اتجاه طائفة أياً كـانت تلـك الطائفـة، وبين ما يريده الله لها.

وترتيب الجمل في الآية الخامسة مع الجملـة الأولى في الآيـة السادسـة معطوف بعضها على بعض على الجملة الأولى (ونريد أن نمنّ علـى الذيـن استضعفوا...) بمعنى نريد التمنن علـى الذيـن استـضعفوا، ونريـد جعلهـم أئمة، ونريد جعلهم وارثين، ونريد تمكينهم في الأرض.

وحيث إنّ كلمة التمنن بمعنى التفضل فالكلمة مبهمة تحتـاج إلى تفسـير، لذلك كان عطف الجمل التي بعدها عليهـا بغـرض التفسير لهـا، أي أن اللـه يريد أن يتمنن عليهم بأن يجعلهم أئمة ووارثين، ويمكنّ لهم في الأرض.

وأما جملة ﴿... **وَنُرِيَ فِرْعَـوْنَ وَهَامَـانَ وَجُنُودَهُمَـا مِنْهُـمْ مَـا كَـانُوا يَحْـذَرُونَ**﴾ [القصص: ٦] فهـي كذلـك معطوفـة علـى جملـة (ونريـد) بمعنـى (ونريد أن نرى فرعون وهامان...).

فالمعنى إذاً هو أن الله سبحانه وتعالى لما رأى فرعـون وظلمـه لطائفـة من الناس أراد أن ينجيهم، ويهلك فرعون ليريه أن ممارسة سـلوك دمـوي غير شريف بهدف الحذر من وقوع قضاء الله، لا ينفع صاحبه، ولا ينجيه مما يحذره، فقضاء الله واقع لا محالة مهما كان قدر الحذر والحيطة.

معنى الإرادة:

الإرادة في اللغة: هي طلب شـيء برفـق، والإرادة بالنسـبة للإنسـان

غير الإرادة بالنسبة لله سبحانه وتعالى.

فالإرادة عند الإنسان تكون على مرحلتين:

الأولى: نزوع النفس إلى الإتيان بشيء، وتسمى بالمبدأ.

والثانية: العمل على تحقيق هذا الشيء الذي نزعت النفس إلى الإتيان به، وتسمّى بـ (المنتهى).

مثال لذلك: إذا أراد الإنسان القيام مثلاً، فقبل فعل القيام تنزع النفس إلى الفعل ثم تعطي النفس أوامرها للأعضاء فينتهي النزوع إلى سلوك.

وأما إذا كانت الإرادة تتعلق بفعل غير المريد، فإنها تعود إلى الأصل اللغوي الذي هو الطلب برفق ولطف فتتضمن معنى التمني أو الرجاء أو الأمر أو غيرها من صيغ الطلب، فقول شعيب عليه السلام لموسى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ...﴾ [القصص: ٢٧].

أي أطلب منك أن تنكح إحدى ابنتيّ.

ومن ثمّ فإن الإرادة إما أن تكون متعلقة بالشخص نفسه، وهي النزوع، والسلوك، وإما أن يكون فعلها متعلقاً بغير المريد فهي الطلب.

وحيث إن الله سبحانه وتعالى ليس كالإنسان مركباً من نفس وأعضاء وغيرها، فإن الإرادة إذا نسبت إليه إما أن تكون متعلقة بحكمة إلهية فهي القضاء الذي لا مردّ له، وهذا المعنى تتضمنه الآية ﴿... وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ...﴾ [الرعد: ١١] والآية ﴿...إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

لأن الإرادة هنا تتعلق بفعله هو سبحانه وتعالى، وهذه الإرادة هي المسمّاة بالإرادة التكوينية.

وأما إذا كانت إرادة الله تتعلق بتشريع أي بفعل غيره، فهي أيضاً تعني الطلب برفق ورحمة، وهي التي تضمنتها الآية **﴿...يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾** [البقرة: ١٨٥] بمعنى يطلب الله منكم اليسر في الأحكام وينهاكم عن العسر فيها، وهي المسمّاة بالإرادة التشريعية.

ولكن هناك إرادة تتوسط بين الإرادة التكوينية والتشريعية، وهي التي تتعلق بالسنن الإلهية، فإذا قلنا مثلاً يريد الله نصر المظلوم، فهذه الإرادة لا هي تكوينية يقول الله فيها كن فيكون، ولا هي تشريعية تتعلق بالتشريع، وإنما هي حالة بين الحالتين، يتعلق تحقق الإرادة فيها بالأخذ بالأسباب، لأن سنة الله في خلقه جرت على أن الظلم لا يرفع عن المظلوم ما دام المظلوم راضياً خانعاً لظالمه، أي أنّ الظلم لا يرفع عن المظلوم بالتمني المجرد عن الأخذ بالأسباب، أما إذا أخذ بأسباب رفع الظلم نصره الله، أي أعانه على تحقيق رفع هذا الظلم، فتحقيق الإرادة فيها معلق بالأخذ بالأسباب، والعزم والعمل، وهذا هو المعنى الذي تتضمنه معنى الإرادة في الآية الشريفة **﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة...﴾** الآية.

وأما الإرادة المتعلقة بهلاك فرعون وهامان وجنودهما، وإراءة بني إسرائيل منهم ما كانوا يحذرون ليست متعلقة لا ببني إسرائيل بالخصوص ولا بفرعون بالذات وإنما هي متعلقة بحكمته في الظالمين عموماً أينما كانوا

وأياً كانوا لإثبات أن إرادة الله في قبال إرادة الظالمين لا مردّ لها ولا دافع ولا حذر يغني من تحققها.

ومن هنا تلوح لنا معالم الإجابة الصحيحة على التساؤل: لماذا لم يذكر الله شعب إسرائيل بالاسم العلم وذكرهم بالصفة (استضعفوا في الأرض)؟ لأن السنن الإلهية لا تتعلق بعرق بشري أو بعنصر، فالظالم ظالم من أي عنصر كان، وهو ملعون من الله، والمظلوم مظلوم من أي عنصر كان يريد الله نصرته ورفع الظلم عنه، لذلك كان انتقام الله من فرعون ليس لكونه فرعون أو لكونه من عنصر القبط، وإنما لكونه حاكماً ظالماً، وإرادة الله تمكين بني إسرائيل في الأرض وأن يجعلهم وارثين، وأن يجعل من قصتهم عبرة، ليس لكونهم عنصر بني إسرائيل - حاشا لله -، فليس بينه وبين فرعون والقبط ثارات، كما ليس بينه وبين عنصر بني إسرائيل صهر أو نسب فالسنّة الإلهية أعم وأشمل من أن تختص بعنصر أو شعب بعينه، لتلك الاعتبارات لم يذكرهم الله باسمهم العنصري، ولكنه ذكرهم بالصفة بقصد بيان تعلق إرادته سبحانه وتعالى بنصرة وإعانة كلّ مظلوم مستضعف في الأرض من أي عرق أو عنصر إن أخذ بالأسباب ونهض لرفع الظلم عنه، والتخلص من الاستضعاف.

معنى: ونجعلهم أئمة.

(الإمام) بالمعنى المتعارف عليه هو الذي يقتدي الناس به، سواء كان شخصاً يقتدي الناس بسلوكه أو أي شيء يتضمن موضوعاً يتعظ الناس

به، فالإمام إما أن يكون شخصاً أو موضوعاً، فقد جعل الله إبراهيم إماماً (قال إني جاعلك للناس إماماً)، وقد سمّى الله القرآن الكريم إماماً (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) والتوراة أسماه الله كذلك إماماً (ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) ومن هنا ينحصر معنى قوله: (ونجعلهم أئمة) في إحدى المعنيين، فإما أن يكون الله قد جعلهم أئمة فرداً فرداً أي أنه جعل كل واحد منهم إماماً، وإما أن يكون المعنى المقصود من الإمام هو موضوع بني إسرائيل وقصتهم مع فرعون.

والخطاب كما هو واضح في الآية لكلّ بني إسرائيل أي لمجموعهم، وليس من المعقول أو المتصور أن يجعلهم الله أئمة كلهم فرداً فرداً، ولو كان كذلك لكان السامري إماماً، وقارون إماماً، وعبدة العجل أئمة، والذين قالوا اجعل لنا إلهاً أئمة.

ولا يصح الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى يجعل ممن لعنهم في أكثر من موضع وعلى لسان الأنبياء جميعاً أئمة يقتدي الناس بهم.

ومن ثمّ فإن المقصود من قوله: (ونجعلهم أئمة) منحصر في المعنى الثاني (للإمام) أي نجعل من قصتهم مع فرعون، وقصة نجاتهم منه قدوة وعبرة وموعظة للناس ليؤمنوا أن الله سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم مهما كان علوه وسلطانه، وينصر المظلوم مهما كان شعبه أو عنصره ما دام عمل على تحرير نفسه وأخذ بأسباب رفع الظلم عنه، وهذا هو المقصود من قوله تعالى: (ونجعلهم أئمة).

معنى: ونجعلهم وارثين.

ذكرنا في الآية السابقة أن كلمة (إرث) تعني انتقال ملكية شيء من هالك إلى آخر ذي علاقة بالإرث والمورث، سواء كان هذا الشيء مادياً أو معنوياً، فالعلم والتقوى، ومثل ذلك من معنويات والأرض والمال وغيرها من أمور عينية.

وقد فنّدنا القول بأن شعب إسرائيل ورث حكم مصر والشام بعد فرعون، واثبتنا عدم صحة هذا القول بما يكفي، وفي هذه الآية أيضا قال المفسرون أن بني إسرائيل قد ورثوا حكم مصر والشام، وما قلته في الآية السابقة أقوله هنا بالإضافة إلى أن الآية هنا لا تخبر بان بني إسرائيل قد ورثوا شيئاً، وإنما تخبر عن إرادة الله لهم بأن يرثوا، ولم يذكر ما هو الشيء الذي يريدهم أن يرثوه.

ويستبعد أن يكون المقصود من الخطاب في قوله: (ونجعلهم الوارثين) وراثة الأرض بقرينة عطف جملة (ونمكن لهم في الأرض) عليها، حيث إنه لا يصح عطف الشيء على نفسه فوراثة الأرض تعني تمكنهم فيها، فلا يصح حمل معنى الوراثة على وراثة الأرض، ومن ثَمَّ لابدّ أن يكون المعنى المقصود من الوراثة شيئاً آخر غير وراثة الأرض، لأن العطف يعني اختلاف المعطوف عن المعطوف عليه لذلك لا يصح أن تُحمل ونجعلهم الوارثين على وراثة الأرض.

ومن ثمّ يمكن تفسير ما أراده الله بالوراثة في الآية بقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر: ٥٣].

فوراثة بني إسرائيل الكتاب الذي نزل على موسى هو المتناسب مع معنى الإرث، فهم ذوو علاقة بموسى، وذوو علاقة بالكتاب الذي نزل كشريعة لهم وهو المعنى الذي يتفق مع السياق القرآني.

وتوريث الله الكتاب لهم من قبيل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]بمعنى أورثهم الله الكتاب أو حمّلهم إياه إلاّ أنهم لم يقوموا بحقه فوصفهم الله بالحمير.

معنى: ونمكن لهم في الأرض.

التمكين في الأرض يعني الإقامة المطمئنة والمستقرة في أرض دون تسلط من عنصر آخر عليهم، والأرض التي أراد الله أن يمكن لهم فيها ليست أرضاً بعينها لأن الأرض ليست هي الهدف والغاية، وإنما الهدف والغاية التي يريدها الله لأي مستضعف خائف شريد كبني إسرائيل حال خروجهم من مصر تائهين في صحراء سيناء، إنما هو الاطمئنان والاستقرار.

وكما ذكرتُ أن هذه الإرادة ليست مخصوصة بعنصر معين بل يريد الله الأمان لكل خائف، والعدل لكلّ مظلوم، والاستقرار لكل شريد، وعدم الاهتمام بماهية الأرض تضمنتها الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

فقوله: (اهبطوا مصراً) بمعنى أي مصر من الأمصار يتوفر لكم فيها ما سألتم من طعام، وشراب، وأمان.

ولكي يتضح هذا المعنى أكثر أذكر كلمة قصيرة حول معنى لفظ (مصر).

إن لفظة (مصر) لفظة أعجمية بمعنى بلد أو قرية، فإن قصد بها (مصر) المعروفة والمعهودة فإنها تُمنع من الصرف لتوفر شرطي العلمية والأعجمية، نحو: (ادخلوا مصرَ إن شاء الله آمنين) ولم يقل: (مصراً) لأنها في حالة التنوين تصبح نكرة، ومن ثمّ تعني أي' قرية من القرى.

ذكرتُ ذلك كجملة اعتراضيه أُبين بها أن القرية أو المصر التي أمر موسى قومه الهبوط إليها (نكرة) وليست محدودة ولا معينة، ولا مقصودة، لأن الله أراد لهم التمكين في الأرض أي أرض وذلك لسببين:

الأول: الاستقرار والعيش بأمان بعد التسلط الفرعوني.

الثاني: أن يملكوا أمرهم في تلك الأرض، ولا يكون عليهم سيطرة عنصرية من أحد، وهذه كما ذكرناه سنة الله وإرادته لكلّ مظلوم مضطهد، وليس لشعب إسرائيل بالخصوص، فالله ينصر من يريد أن ينتصر، ولم تكن نصرته لهم لأنهم أحباب الله، أو لأنهم أبناؤه، أو شعبه المختار على حسب هذيانهم وادعاءاتهم الكاذبة.

وأما انتقام الله من فرعون وجنوده وهلاكهم فكان لعدة أسباب

يمكن استنباطها من الأحداث ومجريات القصة.

منها: استغلال سلطانه في التعالي والادعاء، وهذا الأمر لا يريده الله، وأن سنته جرت على الانتقام من الظالمين.

ومنها: طغيانه وإفساده في الأرض وإسرافه في القتل واستعباد الناس وجعلهم شيعاً.

ومنها: تكذيبه لرسولين من رسل الله بعد مجيئهما بالبينات - موسى وهارون-.

ومنها: تخليص نبي الله موسى، ومن آمن معه منه.

ومنها: أراد الله أن يبيّن أن قضاءه نافذ لا محالة، فإذا كان الله قد قضى أن يزول ملكه على يد مولود من بني إسرائيل فلابدّ أن يتحقق حتى ولو علا فرعون في أرض أضعاف علوه.

ومنها: أن الله أراد أن يجعل من فرعون عبرة لغيره ممن هم مثله، وأنَّ دولة الظلم لا تدوم مهما علت وتمكنت.

ومنها: تحقيق سنة الله في خلقه، فقد جرت سنته بأخذ الظالم، ونصرة المظلوم متى أخذ بالأسباب.

وقد جرت هذه السنّة في قوم لوط، وصالح، وهود، وشعيب، ونوح، وغيرهم ممن قصّ الله قصتهم في القرآن أو ممن رأيناهم بأعيننا أو ذكرهم التاريخ.

فالتمكين في الأرض لا يعني سرقة الأرض والاستيلاء عليها بالسلب والقوة والجبروت. وإنما يعني الاستقرار والاطمئنان، وهذا الشيء لا يمكن أن يتحقق في حالة سرقة الأرض واغتصابها.

الشبهة الثالثة

ومن هذه الشبهات أيضاً قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢١].

ذكرت الآيتان الشريفتان أربع موضوعات تثير في نفس غير العارفين بالخطاب القرآني الذي يخص بني إسرائيل تساؤلات وشبهات، وتبعث في وعي غير الواعي بطبيعة بني إسرائيل أوهاماً تخالف الواقع والحقيقة.

فالموضوعات المذكورة في الآية تستوجب التأمل والملاحظة لكشف الشبهات عن المقصود منها.

والموضوعات التي تضمنتها الآيتان:

أولاً: جعل الله منهم أنبياء.

ثانياً: جعلهم ملوكاً.

ثالثاً: آتاهم ما لم يؤتِ الله أحداً من العالمين.

رابعاً: الأرض المقدسة التي أمرهم الله بدخولها.

قبل الدخول في تفاصيل كلّ موضوع من هذه الموضوعات لابدّ من توضيح أمر عليه مدار إدراك الصحيح من هذه الموضوعات، وبعبارة أدق هو مفتاح فهم المراد وهو أن الآيات تخبر عن أمور في زمن معين محدود، هو زمن موسى عليه السلام، وأنّ هذه الموضوعات من مقولة موسى لقومه، أي أن الأحداث التي تضمنتها المقولات وقعت في زمن موسى حصراً، وأن موسى هو قائلها.

وأما قول بعض المفسرين بأن الآيات إخبار بما سيأتي، أي أن الله سيجعل فيهم أنبياء، ويجعلهم ملوكاً[1] قول مردود بدليل قوله: (واذكروا) لأن التذكير بشيء لابد أن يكون قد وقع هذا الشيء بالفعل، سواء كان في زمانهم الحاضر المشاهد بالعين والمعاش، أو أن يكون قد حدث في الزمن الماضي أي زمن الآباء، والعلم به وصلهم عن طريق النقل والتلقي من جيل إلى جيل.

وأما أن يقول: (اذكروا) بشيء لم يقع بل سيقع في المستقبل أمر يخالف العقل والعرف، والإخبار به كذب، فلو قلنا مثلاً لطفل: اذكر يوم أن اشتريت لك لعبة، ونحن لم نشتر له شيئاً لا في الماضي ولا في الحاضر، وإنما سوف نشتري له، لو قلنا ذلك لطفل لقال: إننا إما مجانين أو كذابين.

إذاً فقول بعض المفسرين: بان الآيات أو بعضها إنباء بما سيحدث نحو قوله: (وجعلكم ملوكاً) قول مردود جملة وتفصيلاً.

---

[1] يراجع تفسير الرازي في تفسير الآية.

والخلاصة: هي أن الخطاب يذكرهم بشيء قد وقع فعلاً، وأن الخطاب لجيل بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، وهذا القول هو المبدأ أو الأساس الذي عليه تفسر الموضوعات التي تضمنتها الآيتان.

أولاً: قول موسى عليه السلام: (إذ جعل فيكم أنبياء).

لم يذكر القرآن الكريم أنبياءً لبني إسرائيل في زمن موسى سوى (موسى وهارون) وأما ما قبل زمانهم فلم يذكر سوى (يوسف، ويعقوب) وأما إسحاق وإبراهيم عليهم السلام فقد كانوا قبل وجود بني إسرائيل أصلاً فهما خارجان عن أصل البحث. ومن ثمّ ليس في بني إسرائيل قبل موسى أنبياء سوى يوسف عليه السلام، وأما في زمان موسى فليس إلاّ هو وأخوه هارون.

وقد يقول قائل: إن عدم ذكر القرآن لأنبياء قبل موسى في بني إسرائيل لا يعني أن الله لم يبعث فيهم أنبياء، حيث لا مانع من إرسال الأنبياء مع عدم ذكرهم.

نقول: إن قوله تعالى حكاية عن مؤمن فرعون الذي كتم إيمانه **﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾** [غافر: ٣٤]. دليل قاطع على خلو الأجيال ما بين جيل يوسف إلى جيل موسى من الأنبياء في بني إسرائيل بالخصوص.

* * *

وقد ذكرتُ في أول الكتاب أن مؤمن فرعون لو كـان يعلـم أو يعلـم الناس الذين كان يخاطبهم أن الله قد أرسـل رسـولاً أو نبيـاً بعـد يوسـف لذكره. ونص قول المؤمن **﴿حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله مـن بعـده رسولاً﴾** يقطع بعدم وجود أنبياء في الفترة ما بين يوسف وموسى.

وأما ما قاله الرازي في تفسيره: بأن السبعين رجلاً الذين اختـارهم موسـى لميقات ربه وصعدوا معه الجبل وهم الذين أخبر عنهـم اللـه في قولـه: **﴿وَاخْتَـارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُـلاً لِمِيقَاتِنَـا...﴾** [الأعراف: ١٥٥] أنهـم كـانوا أنبيـاءً، قـول مردود وبعيد عن الحقيقة القرآنية ووهم وتخمين، لا يستفاد منه علماً، حيث إن الله سبحانه وتعالى نعتهم بقوله (رجلاً) ولم يقـل نبيـاً، وإنما هـي عـادة بعـض المفسرين يلجؤون إلى مثل هذه الأقوال، لأنها أسهل وسيلة لتفسير الآيات التي لا يريدون إمعان نظرهم فيها.

فهؤلاء المفسرون يدركون أن الخطاب في الآية الشريفة موجهة لجيـل بني إسرائيل في زمن موسى، وحيث إنّ الله يقول: (إذ جعل فيكم أنبيـاء) فلابدّ أن يكون فيهم أنبيـاء، ومـن ثـمّ لا بـدّ مـن خلـق أنبيـاء أيـاً كـانوا ليتحقـق المـراد مـن الآيـة في حـين أنهـم لـو قـالوا: (اللـه أعلـم) لأنصفـوا واستراحوا وأراحوا.

وخلاصة القول: لم يكن في زمن خطاب موسـى لقومـه أنبيـاء في بنـي إسرائيل سوى موسى وهارون، ولا مانع من استعمال صيغـة الجمـع موضـع صيغة المثنى، أو المفرد في مثل هذا المقام، فلو لم يكن إلاّ نبـيٌّ واحـد في بنـي

إسرائيل لصح نعته بصيغة الجمع (أنبياء) إما بقصد التعظيم والتفخيم، وإما بقصد بيان الجنس، أي جنس الأنبياء، ومع ذلك فإن صيغة الجمع أولى في الاستعمال من صيغة المثنّى، لأن قصد بيان جنس الأنبياء فيها أقوى.

فالمعنى المراد من قوله: (إذ جعل فيكم أنبياء) تذكير لهم بما أنعم الله عليهم، ومن بين هذه النعم أن جعل فيهم نبيين هما موسى وهارون لهدايتهم وتخليصهم من عبودية وهيمنة فرعون ويحكمون بينهم بحكم الله، ويصلحون ذات بينهم، وهذه النعمة ليست حاصلة لقوم من الأقوام حولهم في زمانهم.

وإرسال الرسل من قوم المرسل إليهم ليس مخصصاً ببني إسرائيل بل هي سنة من سنن الله تعالى، فقد جرت سنته على أن يرسل الرسول من قومه خاصة إذا كانت الرسالة ليست عامة شاملة كرسالة بني إسرائيل.

صحيح! لقد اختص شعب إسرائيل بأكبر عدد من الأنبياء، ولكن ذلك لا يدلّ على فضل لهم ولا كرامة أو أن يكون ذلك محل افتخار وتكبر بل على العكس من ذلك تماماً، فإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على الطبيعة المرضية المستعصية لهذا الشعب المريض، فإن استفحال أمراضه، وغلاظة خُلقه، وانحطاط تفكيره العنصري، وقساوة قلوب أفراده، و...، و...، مما هم أهله يحتاج ذلك إلى أكبر عدد ممكن من الأطباء.

ولما انغلقت قلوبهم تماماً، وقالوا: (قلوبنا غلف) واصبح لا فائدة من

إرسال الأنبياء إليهم، وبعد أن عمدوا إلى صلب سيدنا عيسى عليه السلام[1] استحقوا اللعن والطرد من رحمة الله، فلعنوا من الله وملائكته ورسله، وأنبيائه والناس أجمعين، وحكم الله عليهم أن يكونوا كالقردة والخنازير منبوذين من الناس، والمجتمعات حولهم فأوقف الله الرسل عنهم من باب عدم الفائدة من تعديلهم وتقويمهم كما قال الله سبحانه وتعالى: **﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾** وهذا يبطل الأسطورة التي مافتئوا يرددونها بأنهم أبناء الأنبياء وشعب الله المختار.

حتى لو كان إرسال الأنبياء منهم نعمة من الله وفضل منه عليهم، فإن كلّ نعمة إن لم تصن وتقابل بالشكر والعمل على الحفاظ عليها بالتقوى وطاعة الله، فلا شكّ أنها تبدل إلى نقمة وعذاب ولعن، لهذا لم نجد قوماً لعنوا في القرآن مثل قوم بني إسرائيل، فتارة يصفهم الله بالكفرة، وتارة بالشرك، وثالثة بالفسق، ورابعة بالخيانة، وخامسة بقتلة الأنبياء، وسادسة بالمجرمين، وسابعة بالمفسدين، وثامنة بالحمير، وتاسعة بالخنازير، وعاشرة بالقردة، وغير ذلك من صفات ونعوت هم أهل لها، فوجود عدد من الأنبياء فيهم لا يعني فضلاً لهم، ولا كرامة.

---

[1] من المسلم أن عقيدتنا الإسلامية تنفي وقوع الصلب لسيدنا عيسى (ع) ولكن الإثم والجرم قد حصل فعلاً، من بن إسرائيل.

ثانياً: قوله: وجعلكم ملوكاً.

أكرّر أن الخطاب في الآية لجيل شعب إسرائيل الذين كانوا مع موسى، وأن قوله: (اذكروا) يعني أن المذكّر به حاصل وقائم في أثناء الخطاب، ولا يصحّ حمله على الإخبار بما سيحدث، وإذا لاحظنا الفرق بين جملة (جعلكم ملوكاً) والجملة التي قبلها (إذ جعل فيكم أنبياء) نجد أن جملة (إذ جعل فيكم أنبياء) تعني أن الله جعل منهم أنبياء أي جعل بعضاً منهم أنبياء، و«بعض» يطلق على القليل والكثير، فيطلق على الواحد، والاثنين، أي جعلت منكم موسى، وهارون أنبياء.

وأما جملة (وجعلكم ملوكاً) فتعني أنه جعل كلّ شعب بني إسرائيل ملوكاً، فرداً فرداً، أي أنّ كلّ فرد من أفرادهم جعله ملكاً.

وهنا يقع الإشكال والشبهة، إذا كان المقصود من كلمة (ملكاً) المعنى العرفي لها الذي هو السلطان أو الحاكم صاحب الجند، وصاحب الأمر والنهي، ومن يملك أرضاً ورعية، فإنّ وقوع مثل ذلك من المحال العرفي حيث لا يتصور أن يكونوا كلهم ملوكاً بهذا المعنى، فلابدّ إذاً أن يكون معنى لفظ (ملكاً) غير المعنى العرفي المتبادر إلى الذهن، وأبلغ ما يمكن أن أقوله هو ما ذكره الإمام (محمد عبده) رحمه الله كما نقله عنه (محمد رشيد رضا) في تفسير المنار في معنى هذه الآية الشريفة.

(لولا ما ورد في التفسير بالمأثور عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، والصحابة والتابعين لكانت هذه النعمة مورد اشتباه عند المتأخرين الضعفاء

في فهم العربية لأن بني إسرائيل لم يكن فيهم ملوك على عهد موسى، وإنما كان أول ملوكهم بالمعنى العرفي لكلمة ملك، وملوك (شاؤل بن قيس)[1] ثم (داود) الذي جمع بين النبوة والملك، وأن من يفهم العربية حق الفهم يجزم بأنه ليس المراد أنه جعل أولئك المخاطبين رؤساء للأمم والشعوب يسوسونها ويحكمون بينها، ولا أنه جعل بعضهم ملوكاً لأنه قال: (وجعلكم ملوكاً) ولم يقل وجعلنا فيكم ملوكاً كما قال: (جعل فيكم أنبياء) فظاهر هذه العبارة أنهم صاروا ملوكاً وإن أريد بكل المجموع لا الجميع، أي معظم رجال الشعب صاروا ملوكاً بعد أن كانوا عبيداً للقبط، بل معنى الملك هنا الحر المالك لأمر نفسه، وتدبير أمر نفسه، وتدبير أمر أهله فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال بعد ذلك الرق والاستعباد) انتهى.

ومعنى كلام الإمام: هو أنه لما كان الحديث خاصاً بشعب إسرائيل في زمن موسى، وحيث لم يكن فيهم ملوك بالمعنى العرفي وحيث إن الخطاب يشمل كلّ أفراد الشعب فرداً فرداً حتى أنه لا يصح حمله على الأكثرية منهم، فلابدّ من أن يكون المعنى المقصود من كلمة (ملوكاً) أحراراً مالكين لأمر أنفسهم بعد أن كانوا عبيداً لفرعون وقومه، وهذا المعنى الذي قال به الإمام محمد عبده هو الصحيح والحقّ الذي يؤيده

---

[1] أقول: أول ملوكهم (طالوت) والظاهر أنه القول الأكثر صواباً لأن طالوت هو الذي قتل جالوت آخر ملوك العمالقة، وأما شاؤل بن قيس هنا لا اعتقد بصحة وجوده أصلاً فشاؤل كلمة عبرية وقيس عربية، فالظاهر أنها تركيبة، القصد منها خلق أبطال وملوك وهميين لبني إسرائيل.

اللفظ والسياق والواقع، ومجريات القصة وأحداثها.

ويدل عليه قول فرعون وقومه: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. فكلمة (عابدون) أي عبيد، حيث كان وجودهم في مصر الفرعونية عبيداً أذلاء وبعد خروجهم ونجاتهم من فرعون بعد هلاكه أصبحوا أحراراً مالكين لأمر أنفسهم، فصحّ وصفهم بالملوك، وهذا هو قول أكثر المفسرين والحمد لله، كابن عباس، والسدي، وغيرهما.

وأما قول الخط الإسرائيلي في التفسير: إن الله قد جعلهم ملوكاً على الناس، قول هراء لا أساس له، ولا يتفق مع السياق واللغة وواقع الحال، ويختلف تمام الاختلاف مع العرف للمفهوم من كلمة ملك، فما قولهم إلا أسطورة من أساطيرهم.

فكم وضعوا من أساطير وخرافات وتحريف للحقائق، وخلق القصص الكاذبة ترويجاً لعنصرهم، وتبريراً لتسلطهم وسرقتهم للأرض، وادعاءاً لصنع حضارة إذ تلفتنا يميناً وشمالاً لم نجد لها أثراً ولا رسماً، وإذا قرأنا في التاريخ لم نجدهم سوى حفنة من المنبوذين المشتتين في البراري والجفار من جيرانهم، اللهم إلاّ في بعض الأزمنة المتناهية في القصر أقاموا لأنفسهم دويلات في فلسطين إذا ما قيست بمن حولهم كالحضارة المصرية والشامية والبابلية والآشورية، لا تعدّ دويلاتهم تلك سوى قرية نائية أمام تلك الحضارات العملاقة.

فحياة القلق والتشرد لا يمكن أن تبني حضارة، فالسارق لا يمكن أن ينفق ما سرقه في اطمئنان وتعقل، لأن الخوف يجعله يبدد ما سرقه فيما لا

فائدة منه، فبنو إسرائيل عندما يدخلون أرضاً يدخلونها بحقد وكراهية لا يمكن وصفها، فيحرقون ويخربون ويقتلون، فإن انتصر مثل هؤلاء فإن ذلك لا يدوم لحالة الخوف والقلق الناتجة عن انتظار القصاص والانتقام منهم، وهذا ما نشاهده الآن بأعيننا في فلسطين، فلا نراهم يشيدون حضارة إطلاقاً، وإنما تجهيزات لحروب وخراب، فالنفوس الحاقدة المضطربة لا يمكن أن تبني حضارة بسبب حالة الترقب والفزع التي تنتابهم بسبب ممارساتهم الهمجية مع جيرانهم.

ثالثاً: (وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين).

إن الله سبحانه وتعالى يخبر عن لسان موسى عليه السلام أن الله قد اختص بني إسرائيل في زمن موسى ما لم يخص غيرهم به، أي أنه أعطاهم ما لم يعطِ أحداً من الناس في ذلك الزمان.

وأما ما هو هذا الشيء الذي آتاهم الله ولم يؤته أحداً غيرهم؟

فقد قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: (أنه تعالى فلق لهم البحر وأنه أهلك عدوهم وأورثهم أموالهم، وأنه أنزل عليهم المنّ والسلوى، وأنه أخرج لهم المياه العذبة من الحجر، وأنه تعالى أظلّ فوقهم الغمام، وأنه لم يجمع لقوم غيرهم الملك والنبوة، وأنهم كانوا في تلك الأيام هم العلماء بالله وهم أحباب الله وأنصار دينه) انتهى.

وهذا القول الذي قاله الرازي لا يصح اعتباره خصائص خصها الله بني إسرائيل فقد وقع بعض منها لهم في زمن موسى وبعض آخر لم يقع

لهم إلاّ بعد زمن موسى، وكل ما قاله سواء ما وقع منها في زمن موسى، وما وقع لهم بعده ليس مخصوصاً لهم، وسوف أتناول قول الرازي هذا بشيء من التحليل لأأكد بطلانه. ومن مثل تلك الأقوال تأتي الشبهات وتتركز في الذهن خرافات وأوهام لا أصل لها.

١- فلق البحر وهلاك عدوهم.

إن مسألة فلق البحر ونجاة بني إسرائيل وهلاك عدوهم لا شك بأنه فضل من الله ومنّة منه عليهم، ولكنه ليس مخصوصاً ببني إسرائيل وإنما هي أسباب يسببها الله سبحانه وتعالى لإنجاز وعده وتحقيق سنته في خلقه، وقد ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى أجرى سنته في خلقه في نصرة المظلوم وهلاك الظالم، وإنجاز وعده لرسله، فقد وعد الله موسى بأن يكون معه وأنه مانعه من فرعون ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وعندما تضيق الأمور وتعجز الحيلة البشرية يتدخل القضاء الإلهي، وتحدث المعجزة، فعندما كاد فرعون وجنده أن يدركوا موسى واصبح لا حيلة لهم أجرى الله ما شاء من سبب لإنقاذ موسى وأخيه وقومه ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٣].

لقد كان موسى عليه السلام كان مطمئناً بوعد الله له، لأن ذلك من

سنن الله ومن شأنه تبارك وتعالى مع رسله صلوات الله عليهم فسنة الله جرت بحماية رسله حتى أثناء تأدية الرسالة وإذا ما وعدهم الله بذلك وقد حدث هذا لرسول الله صلوات الله عليهم أجمعين أذكر مثالاً على ذلك هو ما قاله الله سبحانه وتعالى لنبيّه محمد صلوات الله عليه وآله: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد نجّى الله نوحاً في سفينته واغرق أعداءه بعد أن نفذت حيلته وانقضى صبره ويئس من إيمانهم، وكذلك لوطاً، وهوداً، وصالحاً، وشعيباً، وغيرهم، إذاً فمسألة فلق البحر ليست من خصوصيات بني إسرائيل كما ذكر الفخر الرازي.

وأما ما قاله الرازي: إنهم ورثوا فرعون. فقد فصلنا القول في بطلانه، ولا حاجة للإعادة هنا.

٢- إنزال المنّ والسلوى.

المنّ والسلوى طيور برية تعيش في البراري والجفار، أو أنها فطر تنبت بين الصخور في البرية وهذه الطيور التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل لكي تكون طعاماً لهم أثناء وجودهم هائمين على وجوههم في سيناء ليست مخلوقات خلقها الله خصيصاً لهم كما هو المتوهم، بل هي فطر وطيور كالسمّان أو الحجل وغيرهما من طيور البراري.

نعم إن كلمة (أنزل) في قوله: (وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى) تعني

خصوصية في الأمر وهذه الخصوصية هي تكثير هذا النوع من الطعام بحيث يكونان طعاماً لبني إسرائيل في فترة هيامهم في صحراء سيناء ببركة نبي الله موسى وأخيه هارون.

ولا شكّ أنها نعمة أنعم الله بها على بني إسرائيل ولكن لابدّ من التنبيه على أن أنعم الله سبحانه وتعالى ليست مخصوصة بقوم دون قوم حتى ولو اختلفت الأسباب واختلفت أنواع النعم، خاصة النعم المتعلقة بالأرزاق، لأنه تبارك وتعالى ما دام قد خلق فلابدّ أن يرزق، وهذا المبدأ عام لا خصوصية فيه.

وإذا كان الله قد أنعم بالمنّ والسلوى على بني إسرائيل فقد منّ على الشعوب حولهم بما هو أفضل من المنّ والسلوى في مصر، والشام، وفلسطين، وبلاد العراق، وما حولها، أنعم عليهم بأرض وزراعة وماشية، وفواكه، وغير ذلك من نعمه التي لا تحصى.

٣- إخراج الماء العذب من الحجر.

خروج الماء العذب من الحجر سقاءاً لبني إسرائيل أخبر الله عنه في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** [البقرة: ٦٠].

ما قلته فيما سبق أقوله هنا فسقيا شعب ضائع في برية سيناء نعمة ومِنّة منه تعالى يجب ذكرها والتذكير بها في كلّ وقت ومناسبة خاصة

كلما ابتعد الإنسان شيئاً عمن أنعم عليه.

بالإضافة إلى ذلك أنها معجزة من معجزات موسى التي أجراهـا اللـه على يديه ولكنّ المعجزة هذه المرة ليست موجهة إلى فرعون وإنما لبني إسرائيل الذين دأبوا على التكذيب والعناد.

وهذا النوع من الإمدادات التي يمدها الله لعباده المعاندين من باب التمهّل حتى إذا أخذهم كان أخذه أخذ عزيز منتقم، فلا تكون لهم حجة أمام الله يوم القيامة.

ومع ذلك فهي ليست كرامة لبني إسرائيل حيث إن جريان الماء العذب وانبجاسه من الحجر ليس شيئاً مخصوصاً بهم. لأن مسألة الاستسقاء سنة جرت بين الخالق الرازق والمخلوق المرزوق، وهذه المسألة تتعلق برحمته تبارك وتعالى التي وسعت كلّ شيء، ورزقه الذي يصيب به المؤمن كما يصيب به الكافر.

فإن تأخر المطر وجدبت الأرض يخرج الناس رجالاً ونساء، أطفالاً وشيوخاً بأنعامهم يبتهلون ويستصرخون كلّ بطريقته، وعلى حسب ما يعتقد به بغض النظر عن صحة تلك العقائد أو فسادها، ومع ذلك يسقيهم الله سبحانه وتعالى فعبّاد البقر في الهند والصين إذا جدبت أرضهم وتأخر المطر يستسقون بطريقتهم، ويسقيهم الله سبحانه وتعالى.

وقد رأيت بعيني ما يندهش منه المرء ففي أثناء إقامتي في اليمن تأخر المطر وخرج الناس يستسقون، وكنت معهم أشاركهم الدعاء

والاستصراخ، وقد كانت السماء صافية لا يوجد فيها حتى القليل من السحاب، وما أن انتهينا من الصلاة ودعاء الاستسقاء وذبح الشياه وإطعام الفقراء حتى لاحت من المشرق سحابة صغيرة لا يظنّ أحد أنها تفعل ما فعلته من أمطار.

وما فعله موسى عليه السلام فعله كلّ الأنبياء والأولياء حتى يومنا هذا وإن اختلفت الطريقة وتعددت الأسباب.

ومن ثمّ فإن استسقاء موسى وضربه الحجر بالعصا وانبجاس الماء منه نعمة من الله ومعجزة لموسى إلاّ أنه ليس مخصوصاً لبني إسرائيل ولا لكرامة لهم على الله وإنما هي رحمة منه جلّت قدرته ليست مقصورة على قوم دون قوم أو شعب دون غيره.

٤- جمع الملك والنبوة.

إن ما قاله الفخر الرازي بأن جمع الملك والنبوة من الأمور التي آتاها الله بني إسرائيل ولم يؤتها أحداً من العالمين غير صحيح إطلاقاً، لأن جمع الملك والنبوة لم يحدث في زمن الخطاب الموسوي كما ذكرنا فقد كان الجمع في زمن (داود وسليمان) وليس في زمن موسى.

ومع ذلك فإن هذا القول أيضاً غير صحيح، لأننا إذا نظرنا لمعنى الملك لوجدنا أن معناه الحاكم أو صاحب السلطة أو من له الأمر والنهي وتنظيم الجيوش وغيره، وهذا الملك بهذا المعنى قد جُمع للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ

النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾ [الأنفال: ٦٥].

فالنبي كان هو الحاكم وصاحب السلطة ومن له الأمر والنهي ومن بيده تنظيم الجيوش، وغير ذلك من أمور الحكم، إلاّ أنه صلّى الله عليه وآله وسلّم منزّه عن صفات الملوك.

فالنبيّ صلوات الله عليه يتمتع بكل وظائف الملوك، ولكنه منزه ومرفّع عن صفاتهم.

ومن ثمّ لا يصحّ اعتبار جمع الملك والنبوة ممن اختص الله بها بني إسرائيل كما قال الرازي.

٥- وأما قول الرازي: (وإنهم كانوا في تلك الأيام هم العلماء بالله وهم أحباب الله وأنصار دينه). فلعمر الحق إنه العجب العجاب!!

فأي علماء بالله وأحبابه وأنصار دينه هؤلاء الذي يقولون لرسولهم: (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا)؟

وأي أحباب الله هؤلاء الذين قالوا لنبيهم: (اجعل لنا إلهاً ؟).

وأي أحباب الله هؤلاء الذين عبدوا العجل في وجود موسى وهارون بين أظهرهم؟.

وأي علماء بالله هؤلاء الذين يقولون لنبيهم: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة؟).

وأي أنصار دينه هؤلاء الذين سخروا من نبيهم وقالوا: (اذهب أنت

وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون)؟

وأي أنصار دينه هؤلاء الذين رفضوا شرع الله فنتق الله الجبل فوقهم وهددهم بالهلاك إن هم تركوه؟

وكيف يكونون أحباب الله وهو القائل فيهم: **﴿...وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** [البقرة: ٦١].

كيف يكونون أنصار الله ونبيهم موسى يستجير بالله منهم ويتبرأ ويصفهم بالفسق والضلالة **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾** [المائدة: ٢٥].

فإن كانت هذه هي أوصاف أحباب الله، والعلماء به وأنصار دينه، فما هي بالله أوصاف أعدائه والجاهلين به؟

فلا وربِّ موسى وهارون لم يكن بنو إسرائيل خصوصاً ولا اليهود عموماً في يوم من أيامهم أحباب الله أو علماء به أو أنصار دينه، بل هم دائماً أعداؤه، ودائماً جهلة به، ودائماً صادّين عن سبل الخير، وعن سبل دين الله.

وإن كان الله تبارك وتعالى قد أراد لهم الخير والنجاح والفلاح فهذا هو عين ما أراده لغيرهم من خلقه **﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾** [آل عمران: ١٠٨].

وفي نهاية النظر في قول الرازي أقول: إن كل ما ذكره الرازي من خصائص ليست صحيحة إطلاقاً وليست مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وآتاكم ما**

لم يؤت أحداً من العالمين﴾ وإنما يمكن اعتبار مصداق هذا القول هو أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل إليهم رسولين هما موسى وهارون منهم وإليهم، ومن جلدتهم يعرفون لسانهم وأحوالهم ويهتمون بمصالحهم، وعملوا على تخليصهم من ظلم فرعون وطغيانه عليهم، وهذا الشيء لم يحدث لعنصر من العناصر التي كانت موجودة تحت حكم فرعون.

وهذا المعنى هو المعنى الذي جاء في قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]. فالتفضيل على العالمين منحصر في هذه المسألة التي ذكرتها ومنحصر في ذلك الزمان غير متعدٍ لمسألة أخرى ولزمان آخر.

رابعاً: الأرض المقدسة.

هنا مربط الفرس، وهنا بيت القصيد.

فإن قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]. محلّ اشتباه كبير عند من لا يعرف السياق القرآني وخطابه، وعند من ثبت في ذهنه ما ذكره أصحاب التفاسير في هذه الأية فاشتبهوا بأن هذا القول يتفق ولا يتعارض مع دعوى إسرائيل في امتلاك أرض فلسطين، والدعوى بأنها أرض الميعاد، وأنها أرض أجدادهم وأن أباهم إبراهيم قد اشتراها وغير ذلك من مهاترات وأكاذيب أسطورية تبيح لهم سرقة الأرض، والاعتداء، وسفك الدماء، والتدمير.

ومع الأسف قد جاء في كثير من كتب التراث أقوال دسّها اليهود في تفسير هذه الآية لخدمة هدفهم الشيطاني في سرقة أرض فلسطين.

فقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره للآية الشريفة رواية لم يعزها لأحد واكتفى بقوله: (روي) على بناء الفعل للمجهول، فلا ندري من هو الراوي، ومن هو المروي عنه قال: (إن إبراهيم عليه السلام لما صعد جبل لبنان قال له الله تعالى: أنظر فما أدركه بصرك فهو مقدس، وميراث لذريتك).

وعين معنى هذه الرواية جاء في التوراة في سفر التكوين (إنه لما مرّ إبرام (إبراهيم) بأرض الكنعانيين (جبال لبنان) ظهر له الربّ وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض).

وجاء في سفر التكوين أيضاً المعنى نفسه: (في ذلك اليوم قطع الربّ مع إبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات).

وهذا يدل دلالة صريحة على أن ما رواه الرازي في تفسير الآية من موارد يهودية بقصد تثبيت أساطيرهم وإضفاء صفة القداسة عليها من قِبَلِ المسلمين فيسهل على إسرائيل تبرير سرقتهم، وسلبهم لأرض غيرهم.

لذلك اضطرب الشيخ محمد عبده رحمة الله تعالى عليه عندما واجه تلك الرواية وهو يعلم بأهداف الصهيونية وأطماعها وكيدها وخرافاتها، بين نصّ تراثي وواقع بني إسرائيل الملموس، فلم يستطع ردّ النصّ من جانب، ومن جانب آخر لم ينكر الواقع الإسرائيلي مع وجود التعارض بينهما، فعلّق عليها

بقوله: (بأن المراد من نسل إبراهيم هم العرب) وجعل الواقع الحاصل دليلاً على ذلك، بعد أن اعتبر العرب نسل إبراهيم من إسماعيل عليه السلام، وبني إسرائيل نسله من إسحاق، والحقيقة أن قول الإمام محمد عبده رحمه الله هو توجيه للرواية وليس تحليلاً لها، فإن الثابت الذي لا ريب فيه هو أنّ العرب ليسوا أولاد إسماعيل، فالعرب قد كانوا قبل إبراهيم عليه السلام بزمن طويل، فهم أبناء يعرب بن يشجب بن قحطان، وعندما مرّت قبيلة جرهم العربية بعد انهيار سد مأرب بسبب سيل العرم، مرّت جرهم بالسيدة هاجر وولدها إسماعيل بن إبراهيم فأقاموا معها على بئر زمزم، وتزوج إسماعيل من العرب وعاش معهم وانتمي إليهم فأصبحت ذريته عرباً بالانتماء وليس بالنسب وهم الذين يسمّون بالعرب المستعربة، وهذا النوع من العرب ليسوا هم فقط أولاد إسماعيل، بل كلّ من عاشوا بين العرب وانتموا إليهم يصيرون عرباً بالانتماء، والذي حمل الشيخ الإمام على توجيه هذه الرواية هو محاولته تجنّب رفضها، في حين أنّ مثل هذه الروايات لا تحمل أي شيء من القدسية حتى نخشى ردها بل يجب تطهير التراث الإسلامي منها خاصة إذا كانت تخالف روح الإسلام العزيز وتدعو إلى عنصرية.

ومثل هذه الروايات لا تخالف الإسلام، وتدعو إلى العنصرية، وتعطي الحق لمن لا حق له في أرض غيره فقط، بل إنها تضع الله سبحانه وتعالى موضع الربّ العنصري الذي يوزع الأرض على الأحساب، ويثير الفتنة بين الأقوام، فتنزيه الله سبحانه من نسبة هذه الخرافات إليه واجب

شرعي، فلا مسوغ للخوف من رفضها.

لهذا نغض الطرف عن هذه الأساطير من القول ونعتبرها غير موجودة أصلاً ونتناول البحث في النص القرآني بعيداً عنها وعن مثيلاتها.

إن قول موسى: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم). يتضمن ثلاثة معان أساسية:

الأول: معنى الأرض المقدسة.

الثاني: ما هي تلك الأرض؟

الثالث: معنى قوله كتب الله لكم.

والبحث الصحيح في مقاصد هذه المعاني يؤدي إلى الفهم الصحيح لمجمل الآيات الشريفة. لأنه لا يمكن بناء يقين على ظنٍّ. بمعنى أنه لا يمكن أن يكون الظنّ فضلاً عن الخرافة والأسطورة قاعدة ينبى عليها يقين، فمن أجل الوصول إلى يقين لابدّ أن تكون المقدمات يقينيّة، لذلك لابدّ من البحث في معاني الألفاظ في الآية ومدلولاتها وربطها بالسياق العام للقصة. لنصل في النهاية إلى نتيجة صحيحة لا مراء فيها.

أولاً: معنى الأرض المقدسة.

القداسة في اللغة تعني الطهارة والبركة، والشيء المقدس يمكن أن يكون أرضاً أو زماناً، أو شخصاً أو أي شيء له في النفس مكانة معنوية خاصة، فالشيء الطاهر المبارك هو الشيء المقدس[1].

---

[1] يراجع الصحاح مادة (قدس).

ولكن هذا القدر من المعنى لا تأنس به نفوس العارفين بمعاني الألفاظ ومدلولاتها إلاّ إذا أضفنا إلى هذا المعنى معنى آخر هو وجوب الاحترام والتنزيه لهذا الشيء المقدس، أي أن الشيء المقدس هو الشيء الطاهر المبارك الذي يستوجب احتراماً وتنزيهاً خاصاً.

قال تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]. فقداسة الوادي تستوجب احترامه وتنزيهه فأمر الله موسى أن يخلع نعليه تأدباً واحتراماً وتنزيهاً له.

ومن ثمّ فالأرض المقدسة هي الأرض الطاهرة المباركة التي تستوجب احتراماً خاصاً، وهذا المعنى يجرّنا إلى سؤالين هامين:

هل هناك أرض مقدسة وأخرى غير مقدسة؟

وهل القداسة مكتسبة أم ذاتية؟

نعم! هناك أرض مقدسة، وأخرى غير مقدسة بالمعنى المتعارف عليه للقداسة وإلاّ فكلّ الأرض مقدسة، ولكن بالمعنى الذي نعنيه تختلف الأرض، فمنها ما هو مقدّس، ومنها ما ليس بمقدس.

والقداسة في المبدأ مكتسبة حيث لا شيء مقدس لذاته إلا ذات الله سبحانه وتعالى.

فـ (مكة) مثلاً اكتسبت قداستها من اختيار الله لها لتقام الكعبة فيها و(وادي طوى) اكتسب قداسته لاختيار الله له للإيحاء إلى موسى عليه السلام، كذلك غار حراء، وغار ثور، وأحد، وبدر، والصفا والمروة،

والمدينة، وغيرها من أماكن مقدسة اكتسبت قداستها مما حدث فيها، وقبل الحدوث لم تكن مقدسة بهذا المعنى وقد كانت كغيرها، كالأرض العادية التي يقام عليها مسجد فإنها تصير مقدسة بعد إقامة المسجد عليها ويصير لها أحكام لم تكن موجودة قبل إقامة المسجد عليها.

والورقة العادية فإنها لا قداسة لها ولكن بعد كتابة آيات الله فيها أو اسم الله تبارك وتعالى تكتسب القداسة ويحرم مسها للجنب والنفساء والدخول بها المرحاض وغير ذلك من أحكام، وأوراق المصحف اكتسبت قداستها بكتابة كتاب الله فيها وقد كانت قبل ذلك غير مقدسة.

ثانياً: ما هي الأرض المقدسة؟

فبعد بيان معنى القداسة نأتي للمعنى الثاني في الآية وهو:

ماهية الأرض المقدسة التي أمر موسى قومه بدخولها، ومن أين اكتسبت قداستها؟

هذه الأرض هي القرية التي أمرهم موسى بدخولها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١].

وهي المصر التي أمرهم موسى أن يهبطوها ﴿... اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ...﴾ [البقرة: ٦١] وعلى كلّ حال فإن قوله: (هذه القرية) اسم الإشارة فيها يدلّ على معرفة القوم لتلك الأرض وكذلك الألف واللام في

قوله: (الأرض) والتوصيف بالمقدسة، والتوصيف بقوله: (التي كتب الله لكم) هذه كلها دلالات على أن الأرض المرادة معلومة عند المخاطَب.

والمشهور والمجمع عليه والذي لا خلاف فيه أن الأرض المعنية اكتسبت قداستها بحلول سيدنا إبراهيم عليه السلام وحياته وموته فيها، فبعد أن خرج من أرض الرافدين فاراً بدينه أقام بأرض فلسطين هو وزوجته سارة وبقي بها حتى مات ودفن فيها، من هنا اكتسبت أرض المقدس قداستها.

لنفس السبب ادعى بنو إسرائيل ملكيتهم للأرض وأعطوا أنفسهم حق امتلاكها وهو ادعاء في غاية الحماقة والرعونة لأسباب:

منها: أن دخول إبراهيم وإقامته فيها لا يعني امتلاكه لها.

ومنها: أن إبراهيم دخل أرض المقدس كنبيٍّ للبشرية جمعاء أي بصفته النبوية، وليس بصفته الأبوية أو العنصرية حتى إذا مات ورثه أبناؤه وإذا كان هناك شيء خلّفه إبراهيم فلأبنائه حق وراثته وليس وراثة غيره من ممتلكات الناس، ولا يتصور أن إبراهيم عليه السلام قد امتلك كل تلك الأرض من النيل إلى الفرات كما زعموا.

ولو أن إبراهيم عليه السلام دخل تلك الأرض بصفته الشخصية وليس بصفته النبوية فلا يكون حينئذ معنى لقداسة الأرض.

فمدينة (يترب) قد اكتسبت قداستها بعد هجرة النبيّ صلوات الله عليه إليها، فسُمّيّت بالمدينة المنوّرة، ولو كان النبيّ قد دخلها بصفته

الشخصية وليس بصفته النبوية لما اكتسبت المدينة تلك القداسة.

كذلك الحال في أرض فلسطين، فإن إبراهيم عليه السلام قد دخلها بصفته النبوية الشريفة، لذلك اكتسبت قداستها.

ومنها: أنه حتى لو كانت أرض (المَقدس) يرثها أبناء إبراهيم فلماذا بنو إسرائيل يعقوب دون غيرهم من بني إسحاق، أو كذلك إسماعيل عليه السلام فكلهم أولاد إبراهيم، وتخصيص إرث إبراهيم ببني إسرائيل دون غيرهم ظلم لا شكّ فيه وكذب وادعاء لا مراء فيه أيضاً.

وهذا القول الذي ذهبتُ إليه وجدتُ كلاماً مثله لـ(ألفريد غليوم) في الموضوع نفسه يحسن بي نقله لإتمام الفائدة، قال تحت عنوان ما هو امتداد الأرض التي تم الوعد بها:

(والنصوص التي اقتبسناها في الفقرة السابقة تبدأ بإشارة غامضة إلى هذه الأرض، فهي تبدأ من بداية (نابلس) وتستمر بعد ذلك لتشمل كل المنطقة الممتدة من نهر مصر إلى نهر الفرات. ويجب التنبيه إلى أن الوعد الذي تضمنه النص الثالث من النصوص المشار إليها[1] في الفقرة السابقة بمملكة تمتد من النيل إلى الفرات كان قبل مولد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام. ومن ثمّ فإن هذا الإقليم الموعود به ليس ضرورياً أن يكون إسرائيلياً صرفاً)[2] أهـ.

---

(١) النصوص المشار إليها هي نفس النص الذي ذكرته عن التوراة سابقاً.

(٢) من كتاب (فلسطين والكتاب المقدس) طبعة ليبيا.

ولا شكّ أن (غليوم) بنى على صحة النص التوراتي، ولكني سلمتُ بصحة النص جدلاً وليس حقيقة، لأن تمليك الله أرضاً لشخص دون آخر ينافي خصائصه تبارك وتعالى كما ذكرت قبل ذلك، لهذا يلزم تنزيه الله سبحانه وتعالى عن القول بتمليكه أرضاً لأحد.

وهناك شيء آخر وهو أن التوراة إذا كانت تدّعي ملكية فلسطين أو الأرض المشار إليها من النيل إلى الفرات بالوراثة إلى بني إسرائيل فإن ذلك يتعارض مع نفس دعوى التوراة بأن تلك الأرض هي أرض الميعاد لكل اليهود من الأعراق والعناصر المختلفة، فالملكية الخاصة تتعارض مع الملكية العامة في مثل هذه الحالة، فإذا كانت الأرض ملكاً لعنصر بني إسرائيل فكيف تكون في نفس الوقت ملكاً لليهود من الأعراق الأخرى، وإن دلّ ذلك فإنما يدل على شيء واحد لا ثاني له وهو أن العنصر الإسرائيلي استغل اليهود من العناصر الأخرى لتحقيق أهداف عنصرية في اغتصاب أرض فلسطين وتغطية ذلك بالغطاء الديني، أو بعبارة أخرى استعان عنصر بني إسرائيل بعموم اليهود في سرقة واغتصاب الأرض العربية.

ومنها: أن يعقوب وأبناءه الاثني عشر أي الجيل الأول منهم لم يخرجوا منها مطرودين، بل خرجوا منها بدعوة يوسف إليهم لدخول مصر كما ذكرناه وبيناه في أول البحث. هذا إذا سلمنا أن يعقوب وبنيه كانوا يسكنون فلسطين قبل دخول مصر. مع أن النص القرآني يثبت أنهم كانوا يعيشون في البراري.

فإن يعقوب عليه السلام لم يمتلك أرضاً ولا أبناؤه، حيث كانت مهنتهم الرعي وتتبع مواطن القطر والمرعى، وهؤلاء في العادة والعرف لا يملكون أرضاً.

ومنها: إذا كانت تلك هي أرض الميعاد فلماذا تركها يعقوب وأبناؤه ورحلوا عنها، وإن كان خروجهم منها بسبب الجوع والفقر وطمعاً في خيرات مصر فلماذا لم يتذكروا ميراثهم هذا إلاّ بعد خروجهم من مصر وضياعهم في صحراء سيناء؟

ونفس الحال في العصر الحديث لم يتذكر بنو إسرائيل فلسطين إلاّ بعد إهانة الألمان لهم في سنوات الحرب العالمية.

في الواقع أنّنا إذا قلّبنا الأمر على جميع جوانبه لا نجد سوى أساطير وادعاءات يهودية مغرضة لاغتصاب أرض غيرهم وامتلاك حق ليس حقهم بأكاذيب نسبت إلى الدين ووصايا نسبت إلى الله كذباً وبهتاناً.

وزخرف من القول لهدهدت الأطفال.

ثالثاً: معنى قوله تعالى: «كتب الله لكم»

وأما المعنى الثالث في الآية وهو قوله: (كتب الله لكم).

إن المعنى المتبادر لقوله: (كتب الله لكم) يتعارض مع الثوابت الإلهية، فالله سبحانه وتعالى لايمكن أن يميز بين شعب وآخر، بحيث يعطي هذه الأرض لبني عمرو، وتلك لبني بكر، فمن خصائصه تبارك وتعالى النظر إلى خلقه نظرة سواء وإنما تفاضلهم بالصفة التي تلبس بها خلقه.

ومن ثمّ فإن قوله تعالى: (كتب الله لكم) ليس المقصود منها التمليك أو التخصيص بل المقصود منها الإيواء والعيش المطمئن، ويؤكد هذا المعنى التقابل بين حكم (كتب الله لكم) وبين حكم (فإنها محرمة عليهم) الذي جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۞ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٤-٢٦].

فإن تقابل الحكمين: حكم دخول الأرض، وحكم تحريمها عليهم، حتى لو كان هذا التحريم مؤقتاً فإنه يدلّ على أن الدخول كان بقصد الاطمئنان والاستقرار بعد الضياع، وليس بقصد التملك والهيمنة لأن تبديل حكم الدخول بحكم التيه يؤكد عدم ثبات أو استقرار حكم الدخول.

ويدلّ على ذلك أيضاً ويؤكده الحالة التي أمر الله بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة بها، فإن قوله: (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) كما في سورة البقرة بمعنى قولوا خيراً وادخلوا بتواضع وسلام أي دخول لاجئ لا دخول مالك، دخول مؤمنين لا دخول مجرمين، دخول مسالمين لا دخول محاربين جبارين.

والهيئة التي أمرهم الله بالدخول بها تتناسب كلّ التناسب مع قداسة الأرض وحرمة دماء أهلها، ولكن شعب إسرائيل جبُن عن دخول الأرض فتاهوا في برية سيناء، ومات موسى عليه السلام أو قتل في هذه الفترة

وتوحش بنو إسرائيل، ولما تمكّنوا دخلوا الأرض على غير الهيئة التي أمرهم الله الدخول بها ﴿**فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم**﴾ فدخلوا الأرض غير مبالين بقدسيتها وغير مبالين بدماء أهلها فقتلوا، وأحرقوا، ودمروا، ونهبوا، وسلبوا الأموال والأعراض.

وإذا عقدنا مقارنة بين دخول رسولنا الأعظم محمد صلوات الله عليه الأرض المقدسة (مكة) فاتحاً، وبين دخول هؤلاء الهمج الرعاع أرض المقدس، نقف خاشعين أمام عظمة ورحمة رسولنا الأعظم والأمة الإسلامية العصماء، فعندما دخل نبينا مكة دخلها ساجداً على ناقته خاشعاً لله متواضعاً، مسبّحاً، ثم نجده يعفو عن أهلها رغم ما فعلوا به ويقول لهم: (لا تثريب عليكم اذهبوا فأنتم الطلقاء). بمعنى لالوم ولا عتاب.

فبعد هذه المقدمات الثابتة اليقينية يصحّ أن نبني عليها القصد الصحيح من قوله تبارك وتعالى من دخول الأرض المقدسة، وأما ادعاءات بني إسرائيل في امتلاك الأرض أو أن الله قد ملكهم إياها فهي ادعاءات وكذب على الله تبارك وتعالى... فتأمل.



خـاتمة

اليهود بين الماضي والحاضر

إنّ الدّارس العارف بتاريخ اليهود يُدرك أن هؤلاء القوم يتسمون بما يسمى بالثبات السلوكي في جميع مراحل أجيالهم وكأنهم لا يتناسلون إلاّ الشر وكأنّ الشرّ داخل في تركيبة دمائهم ينتقل من جيل إلى جيل، فإذا تناولت جيلاً من جيلهم في أي زمان أو مكان فإنه يتشابه كل التشابه مع الأجيال الأخرى.

فمن لم يعرف تاريخهم. عليه أن ينظر إلى الحاصل منهم في الحاضر الملموس، يدرك أن الشر المتأصل في نفوسهم، لا يمكن أن يكون خُلقاً عارضاً، بل هو سلوك متوارث عبر أجيالهم الأولى، فيقف بجلاء على تاريخهم وإن لم يقرأ في كتاب أو يبحث في طيات التاريخ.

ومن يعرف تاريخهم، ويعرف أخلاق أجيالهم الأولى لا يتعجب أو يندهش لسلوكهم وأخلاقهم الشريرة في زماننا الحاضر.

فهذه الفروع تسقى من تلك الجذور والشجرة التي فسدت جذورها وساءت أصولها لا يمكن أن ننتظر منها ثماراً غير خبيثة.

فكل ما تفعله إسرائيل اليوم في المنطقة، وكل ما يفعله اليهود في كل الدنيا من إشعال نيران الفتنة والحروب في العالم إنما هو دين يدينون به،

وسلوك وراثي انتقل إلى حاضرهم من ماضيهم عن طريق التعاليم والوصايا التلمودية التي يتناقلونها ويضفون عليها سمة القداسة والدين.

وهذه الحقيقة الثابتة أتوجه بها إلى الشعوب الإسلامية عامة والعربية خاصة، والشعب المصري على وجه الخصوص، منبهاً أن الحكومات من شأنها أن تجري اتفاقات صلح مع الكيان الإسرائيلي، لأن الاتفاقات والمعاهدات تتعلق بالقدرات على المواجهة مثل: القدرة العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو غيرها، مع جريان العادة على أن حكوماتنا لا تستفتي شعوبها في مثل هذه الأمور.

ولكن الذي ليس من شأن الحكومات فرضه هو ما أسموه بالتطبيع مع شعب إسرائيل، فعلاقات الشعوب غير قابلة لأن تُملى أو تُفرض عليهم سلباً كان أم إيجاباً. وبالخصوص تلك التي ضرب العداء بينهما جذوره في أعماق التاريخ.

وأجزم أن العيب ليس في العرب أو المسلمين إطلاقاً. فالعرب كعنصر لا يحملون في نفوسهم عداءً لعرق أو عنصر آخر. فمنذ عصور ما قبل التاريخ إلى يوم الناس هذا يتعايش العرب مع غيرهم من الأعراق كالفرس، والروم، والأكراد، والأتراك، وغيرهم في سلام ومحبة وإخاء، بغض النظر عن حالات بعض النعرات العارضة التي غالباً ما يكون وراءها يد يهودية.

والمسلمون كذلك يتعايشون مع أصحاب الديانات الأخرى سواء كانت سماوية كالمسيحية أو حتى غير سماوية في سلام وإخاء، كلٌّ

يحفظ للآخر حقه وحرمته.

إذاً ليس العيب فينا كعرب أو كمسلمين وإنما المرض في نفوس بني إسرائيل خاصة واليهود عامة.

ومن ثمّ لا شك في حماقة دعاة التطبيع وجهالتهم - هذا إذا أحسنّا الظنّ بهم - لأن التطبيع يعني إعادة العلاقات بين اليهود والمسلمين، أو بين العرب وبني إسرائيل إلى طبيعتها. والسؤال هل كانت تلك العلاقات في يوم من الأيام من الأجيال الأولى حتى الآن طبيعية؟

فإن كانوا لا يعلمون فإني أدعوهم إلى النظر في التاريخ. فإن قالوا: إن ما فات قد مات. أقول: ليت ما فات قد مات، فإن الواقع والحاصل منهم في الحاضر. يؤكد أن ما فات لم يمت بل بنت عليه إسرائيل عقيدتها وسلوكها، وسياستها. فكيانها الاستعماري والتوسعي قائم على أساس الأساطير التي وضعها أجدادهم.

وأما قولي للمثقفين الذين أفلست جعبتهم في مواجهة إسرائيل، ولم يبق لديهم سوى الفن ومثله، أتوجه إليهم بدراسة الإسلام كثقافة إن كانت كلمة الدين من المزعجات لهم، وأن يقوموا بدراسة القرآن كوثيقة تاريخية إن كان إيمانهم بنزوله من الله ضعيفاً أو منعدماً.

فالإسلام أقوى الوسائل في مواجهة الثقافة اليهودية، وهو الأقوى في كشف أساطيرهم التي أقاموا عليها كيانهم، والتي يستغلونها في سياسة التوسع والاستيطان، والتي من خلالها يتحدّون ويصولون ويجولون.

واما المعنيون بالتراث الإسلامي فإني أتوجه إليهم أن يعيدوا النظر في

جزئيات التراث، فنقبل منه ما يصحّ، ونردّ ما لا يصحّ، وألاّ نرفض كل وارد علينا من أفكار دون النظر والتأمل فيها، وأتوجه إليهم بإعادة قراءة النصّ القرآني بعيداً عن هيمنة الإسرائيليات.

فإن مواجهة الثقافة الإسرائيلية واجب إسلامي، وواجب وطني على كل غيور، والتعاون والتكاتف بين المثقفين الوطنيين المحبين لأوطانهم والمثقفين الإسلاميين ضروري لكشف ومقاومة الفساد الإسرائيلي في مصر وغيرها من المجتمعات التي نالت منها اليد اليهودية عموماً والإسرائيلية خصوصاً، هذا التعاون المؤدي إلى التكامل عامل مهم وأساس في نجاح التصدي للتيار الإسرائيلي الذي يتغنى بالدعوة إلى التطبيع.

وما بين العرب والمسلمين وبين إسرائيل ليس محصوراً في الأرض التي اغتصبتها بل مابيننا أعمق من ذلك بكثير، فمسافة البعد بيننا وبينهم كمسافة البعد بين الحق والباطل والظلم والعدل، والحرب والسلام.

فقد عادت سيناء إلى مصر، فهل عادت المودة بعودتها بين الطرفين؟ وهل دخل في قلب مصري صميم ذرة من أمان أو حبّ ليهودي أو إسرائيلي؟ بإستثناء أفراد دخلاء عاشوا على أرض مصر ولم ينتموا يوماً إليها اشترتهم إسرائيل أو ربتهم، وهؤلاء ليسوا مصريين بأي حال من الأحوال.

وهل إذا عاد جنوب لبنان لأهله أو عادت الجولان لسورية أو حتى أرض فلسطين لأهلها. هل يدخل قلب عربي الأمان لليهود؟ أو الاطمئنان لهم مثقال ذرة؟ لذلك على دعاة التطبيع مع إسرائيل أن يطلبوا منها أولاً: أن تتخلى عن طبيعتها العدوانية الحاقدة، وأن تقتلع من أعماقها جذور

الفتنة إن كانوا قادرين على ذلك.

فمتلنا ومثل بني إسرائيل كالمرأة التي ربّت جرو ذئبٍ وغذّته من لبن شاة لها. فلما كبر الذئب ونبتت أنيابه أكل أمه. فقالت المرأة:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي وأنت لشاتنا ابن ربيب

غذيت بدرها ونشأت معها فمن أنباك أن أباك ذيب

إذا كان الطبع طباع سَوْء فلا أدب يفيد ولا أديب

فهذه هي الحقيقة فكما أن الذئب ذئب فاليهود يهود.

فاليهود الذين حاربوا العرب في سنة: (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣) ولازالوا يحاربون مع إسرائيل حتى الآن، كثير منهم كانوا مصريين أو سوريين أو يمنيين أو عراقيين ورغم ذلك حاربوا العرب الذين عاشوا بينهم وترعرعوا في أحضانهم وكنفهم.

ومن هنا أقول لدعاة التطبيع: إن إسرائيل هي إسرائيل، واليهود هم اليهود. ولا يمكن أن يكون هناك تطبيع حتى يعود كل يهودي في فلسطين إلى وطنه الأصلي الذي جاء منه. ويتخلى عن الأوهام التي صورها له دعاة الصهيونية وأصحاب المصالح في إسرائيل. ويعيش مع جيرانه كما كان يعيش ... هذا هو التطبيع الصحيح إن أرادوا أن يعلموا.

والحمد لله ربّ العالمين

محمّد عصمت بكر

المحتويات

دار النمير
طباعة - نشر - توزيع

دمشق - الحلبوني - شارع مسلم البارودي - طريق الجامعة
ص.ب: ٥١٧٥ - هاتف: ٢٢٢٦٢٠٧ - فاكس: ٢٢٣٤١٦٠